موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

الطَّعام

عناصر الموضوع

مفهوم الطّعام	٨
الطعام في الاستعمال القرآني	٩
ألفاظ ذات صلة	١٠
الله تعالى هو المطعم لخلقه	١٢
الرسل بشر يأكلون الطعام	١٧
أنواع الأطعمة في القرآن الكريم	٢١
الإطعام في القرآن الكريم	٢٩
طعام الآخرة	٣٨
الطعام وعبادة التفكر	٤٥

المجلد الثاني والعشرون

مفهوم الطّعام

أولًا: المعنى اللّغوي:

لفظ الطّعام مصدر مشتق من مادة (طعم)، بمعنى أكل، قال ابن فارس: «الطاء والعين والميم أصلٌ مطّردٌ منقاسٌ في تذوّق الشّيء، يقال: طعمت الشيء طعمًا، والطّعام هو المأكول» [1]، فالطعام اسم جامع لكل ما يؤكل، ويأتي الطعام مجازًا بمعنى الشبع؛ يقال: ما يطعم آكل هذا الطّعام، أي: ما يشبع، ويقال: إنّ هذا الطّعام طعمٌ، أي: يطعم من أكله، أي: يشبع، وفي الحديث عن أبي ذرٍ رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال في زمزم: (إنّها طعام طعمٍ) [2]، أي: يشبع الإنسان إذا شرب ماءها، كما يشبع من الطّعام [3]، وقال الراغب: «إنّه يغذّي بخلاف سائر المياه» [4]، وقد يطلق لفظ (الطعام) ويراد به صنفًا معينًا دون غيره، كالبر مثلًا؛ فإنّ أهل الحجاز إذا أطلقوا لفظ (الطعام) عنوا به البرّ خاصّةً [5].

والخلاصة أنّ الطعام في اللغة يطلق على كلّ ما يؤكل ويتغذّى عليه مما خلقه الله عز وجل.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي للطعام عن معناه اللغوي؛ إذ الطعام في الاصطلاح يطلق على: كلّ ما يتناول من الغذاء [6].

وكلّ شيء يأكله الإنسان أو غير الإنسان يسمى طعامًا، فالطعام «اسم لكل ما يؤكل ويطعم» [7]؛ فلا يختص لفظ الطعام بأصناف معيّنة مما يؤكل؛ بل كلّ ما يؤكل فهو طعام، سواء كان مما أحلّه الله عز وجل لعباده أو مما لم يحلّه لهم.

---

(١) مقاييس اللغة ٣/ ٤١٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه، رقم ٦٥١٣، ٧/ ١٥٢.

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ١٢٥.

(٤) المفردات ص٣٠٤.

(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٦٧٣.

(٦) انظر: المفردات، الراغب ص٣٠٤.

(٧) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٥/ ٣٩١.

الطعام في الاستعمال القرآني

وردت مادة (طعم) في القرآن (٤٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت كالآتي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٥	﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ﴾ [قريش:٤]
الفعل المضارع	١٢	﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان:٨]
فعل الأمر	٢	﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ۝٢٨﴾ [الحج:٢٨]
المصدر	٢٨	﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤﴾ [البلد:١٤]
اسم الفاعل	١	﴿طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ [الأنعام:١٤٥]

وجاء الطعام في القرآن على أربعة أوجه[٢]:

الأول: كل ما يطعم منه، ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ﴾ [قريش:٤].

الثاني: السمك، ومنه قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة:٩٦].

الثالث: الذبائح، ومنه قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة:٥] **أي: ذبائحهم.**

الرابع: الشراب، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ [البقرة:٢٤٩] **أي: ومن لم يشربه.**

---

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٤٢٥-٤٢٦.

(٢) انظر: والوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان ص ١٩٤- ١٩، نزهة الأعين، ابن الجوزي ص ٤١٢-٤١٣، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٣٢٢-٣٢٣.

ألفاظ ذات صلة

١ الأكل:

الأكل لغةً:

من أكل الطعام يأكله أكلًا، فهو آكلٌ، والإكلة -بالكسر- الحال التي يأكل عليها؛ متكئًا أو قاعدًا، يقال: إنه لحسن الإكلة، والأكلة - بالفتح - المرة الواحدة المشبعة، والأكلة -بالضم- اسم للّقمة [١].

الأكل اصطلاحًا:

ليس هناك تعريفٌ اصطلاحيٌ للأكل يختلف عن تعريفه اللغوي، فالأكل معروف ولا يحتاج إلى تعريف، ويطلق لفظ الأكل ويراد به فعل الأكل، أي: تناول الطعام، وقد يطلق ويراد به الطعام نفسه.

الصّلة بين الأكل والطعام:

يغلب استعمال لفظ الأكل في التعبير عن عمليّة الأكل، وقد يستعمل للدلالة على ما يؤكل، أمّا الطعام فيراد به دائمًا ما يؤكل؛ لذا يقال: تناولت طعامي، ويندر أن يقال: تناولت أكلي.

٢ الغذاء:

الغذاء لغة:

من الفعل غذا بمعنى: نما، والغذاء كل ما يتغذّى به، وقيل: ما يكون به نماء الجسم وقوامه؛ من الطّعام والشّراب واللّبن، وقيل: اللّبن غذاء الصغير وتحفة الكبير [٢].

الغذاء اصطلاحًا:

يعرّف علماء التغذية الغذاء بأنّه: «موادٌّ تؤخذ عن طريق الفم؛ للإبقاء على الحياة والنمو، حيث تمد الجسم بالطاقة، وتبني الأنسجة، وتعوض التالف منها» [٣].

الصّلة بين الغذاء والطعام:

من خلال التعريفات السابقة يظهر أنّ الغذاء والطعام لهما نفس المعنى، ولا يكاد يظهر

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٠٠.
(٢) انظر: المصدر السابق ٥/ ٣٢٢٣.
(٣) معجم الصناعات الغذائية والتغذية، محمد فهمي صديق ص٢٠٧.

فرق بين اللفظين؛ إلا أنّ لفظ الغذاء فيه تركيز على معنى التغذية والنمو المستفاد من تناول الغذاء، أمّا لفظ الطعام ففيه تركيز على الطعم الذي يجده الإنسان عند تناول طعامه، ولفظ الطعام أعمّ من لفظ الغذاء.

٣ الشراب:

الشراب لغة:

مشتق من الفعل: شرب، يقال: شربت الماء أشربه شربًا، والشّرب الاسم، وكذا الشّراب، والشّرب: الحظّ من الماء(١).

الشراب اصطلاحًا:

المعنى الاصطلاحي للشراب نفس المعنى اللغوي؛ إذ الشراب في الاصطلاح من الشّرب، والشرب «تناول كل مائع؛ ماء كان أو غيره»(٢)، فالشراب كل مائع يشرب؛ سواء كان ماءً أو غير الماء.

الصّلة بين الشراب والطعام:

الفرق بين الشراب والطعام ظاهرٌ بيّنٌ؛ إذ الشراب ما كان مائعًا كالماء، ويتناوله الإنسان شربًا، أمّا الطعام فيشمل كل ما يتناول من الأكل، فهو بذلك قد يطلق على الشراب أيضًا.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢٦٧.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٥٧.

الله تعالى هو المطعم لخلقه

لقد خلق الله عز وجل الخلق، وتكفّل سبحانه برزقهم والعناية بهم؛ فهو وحده سبحانه يطعمهم ويسقيهم، وهو سبحانه يرزقهم ويهديهم، لم يخلق سبحانه الخلق لحاجةٍ لهم، ولم يرد منهم أن ينفعوه بشيءٍ؛ فهو سبحانه وتعالى الغنيّ عن خلقه؛ فالخلق خلقه، والملك ملكه، والكلّ تحت سلطانه وحكمه، قال عز وجل: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: ١٥ - ١٧].

وهو سبحانه الواحد الأحد، الفرد الصمد، كلّ الخلق محتاج إليه، وهو غير محتاج لأحد.

ولقد أخبر الله سبحانه عن غاية خلقه للعباد، وبيّن أنّه ما يريد منهم رزقًا ولا طعامًا؛ وإنّما خلقهم سبحانه لعبادته وطاعته، قال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

فعبادة الله هي الغاية العظمى لخلق الجنّ والإنس؛ فما خلقوا إلا ليستجيبوا لربّهم، وليذعنوا له سبحانه بالطاعة والعبادة؛ وذلك من خلال طاعة رسله، والتزام أمره، واجتناب نهيه، والخضوع لشرعه عز وجل[(١)].

أولًا: تنزيه الله تعالى عن الحاجة للطعام:

إنّ الله عز وجل ليس محتاجًا من عباده أن يطعموه، أو أن يرزقوه، سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، وليس محتاجًا من عباده أن يرزقوا خلقه؛ بل ليس محتاجًا إليهم ليرزقوا أنفسهم؛ فهو سبحانه قد تكفّل برزقهم ومعاشهم، وبرزق الخلق أجمعين، وهو سبحانه الغني الحميد، والخلق كلهم فقراء إليه[(٢)]؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ أي: كثير الرزق، الذي ما من دابّة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، وهو سبحانه ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ أي: الذي له القوة والقدرة كلها، ونفذت مشيئته في جميع البريات، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحدٌ، ومن قوته سبحانه أنّه أوصل رزقه إلى جميع خلقه[(٣)].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٥٥.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٤٥.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨١٣.

إنّ من كملت صفاته، وكمل غناه عن خلقه، وعظم ملكه وسلطانه هو وحده من يجب أن يتّخذه العباد وليًّا؛ ولا يتّخذ وليٌّ سواه؛ فهو سبحانه الخالق الرازق، فاطر السماوات والأرض، يسدي لعباده النفع، ويدفع عنهم الضّر، وهو غير محتاج لغيره، قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

فلا ينبغي للعبد أن يتّخذ وليًّا إلا الله وحده لا شريك له؛ فإنّه فاطر السموات والأرض؛ خلقهما وأبدعهما على غير مثال سبق، وهو سبحانه ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ فهو من يطعم الخلق ويرزقهم، وهو الرزاق المتفضّل على الخلق أجمعين، وهو سبحانه منزّه عن الطعام والشراب؛ فلا يحتاج لطعام ولا لشراب، ولا يحتاج لأحدٍ من خلقه، ومن كانت هذه صفاته فهو الإله الحقّ، الذي لا إله غيره، ولا معبود بحقٍ سواه[١].

ولقد ردّ الله عز وجل على الضالين المفترين الذين اتخذوا عيسى عليه السلام وأمّه إلهين من دون الله عز وجل بأنهما كانا محتاجين إلى الطعام والشراب، وكيف لمن كان محتاجًا لطعامه فقيرًا لغيره أن يكون إلهًا يعبد؟! قال الله عز وجل: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

قال البغوي: «أي: كانا يعيشان بالطعام والغذاء كسائر الآدميين، فكيف يكون إلهًا من لا يقيمه إلا أكل الطعام؟!»[٢].

وإنّ حقيقة رزق الله عز وجل لعباده وإطعامه لهم حقيقة لا ينكرها أيّ عاقل، ولا يستطيع أن يتجاهلها حتى المشرك الكافر؛ فالمشركون يقرون بأنّ الخالق الرازق هو الله سبحانه، قال الله عز وجل عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦١ – ٦٣].

فسبحان من يرزق العباد ويطعمهم، وسبحان من تنزّه عن الحاجة للطعام والشراب، وسبحان الغني عن كل العباد.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٣٥.

(٢) معالم التنزيل ٣/ ٨٣.

ثانيًا: الطعام نعمة إلهية تستوجب الشكر:

لا شكّ بأنّ إطعام الله عز وجل لخلقه ولعباده نعمة عظيمة منه سبحانه عليهم، ولولا إطعام الله عز وجل للخلق ورزقه لهم لفنيت حياتهم، وانعدم وجودهم؛ فحياة الخلق أجمعين إنّما هي من الحيّ القيوم، ومعاشهم وقوام أمرهم إنما هو بإطعام الله عز وجل ورزقه لهم.

والعبد الشاكر لربّه عز وجل يستشعر دائمًا نعم الله عز وجل عليه، ويقابل تلك النعم بالشكر والثناء على المنعم سبحانه، وقد أخبر الله عز وجل عن نبيه إبراهيم عليه السلام كيف حاجّ قومه، وقدم بين يديهم الأدلة والبراهين على أنّ الله وحده هو الإله الحق الذي يجب على العباد أن يعبدوه دون سواه؛ لأنّه سبحانه وحده المنفرد بالإنعام على خلقه وعباده بأصناف النعم والعطايا، قال الله عز وجل مخبرًا عن إبراهيم عليه السلام وهو يحاجّ قومه: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٨٢].

فالله سبحانه هو المنفرد بالإنعام على العباد؛ فهو وحده المنفرد بنعمة الخلق، ونعمة الهداية للمصالح الدينية والدنيوية، وهو وحده المنفرد بإطعام العباد ورزقهم، وهو وحده الذي بيده الشفاء من الأمراض والأسقام، وهو وحده الذي بيده الموت والحياة؛ فيجب أن يفرد وحده بالعبادة والطاعة، ويترك ما سواه من الأصنام والآلهة التي لا تخلق، ولا تهدي، ولا تمرض، ولا تشفي، ولا تطعم ولا تسقي، ولا تميت، ولا تحيي، ولا تنفع عابديها، بكشف الكروب، ولا مغفرة الذنوب[(١)].

إنّ من أنعم على عباده بالخلق والهداية، وتفضّل عليهم بالإطعام وبأصناف الرزق هو وحده من يعبد، وهو وحده من يطاع، قال سبحانه آمرًا قريشًا خاصةً والناس عامةً: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ٣ - ٤].

فقد علل سبحانه أمره لهم بالعبادة له بأنّه سبحانه قد أسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة، وجمع لهم أعظم نعمتين؛ حيث أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، وفي الجمع بين هاتين النعمتين نعمة عظمى؛ لأنّ الإنسان لا ينعم ولا يسعد إلا بتحصيل النعمتين معًا؛ إذ لا عيش مع الجوع، ولا أمن

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٩٢.

مع الخوف، وتكمل النعمة باجتماعهما [(١)].

فمن الواجب على العباد الذين يتمتعون بنعمة إطعام الله عز وجل لهم أن يقابلوا تلك النعم بالشكر الجميل والثناء الحسن على المنعم المتفضل على خلقه وعباده، ولا ينبغي أن يشركوا به سواه؛ فإنّ غاية الظلم أن يشرك العبد بربّه، وأن يعبد معه سواه، ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الأعراف: ١٩١ - ١٩٤].

ثالثًا: التحليل والتحريم لا ينبغي إلا لله عز وجل:

إنّ من عقيدة أهل الإيمان أنّهم يؤمنون بأنّ التحليل والتحريم والتشريع لا ينبغي إلا لله عز وجل؛ فلا يحلل ولا يحرّم إلا هو سبحانه، وليس لأحد من الخلق أن يصدر حكمًا على أمر من الأمور أو على طعام أو شراب بالحلّ أو الحرمة من غير دليل ثابت من شرع الله عز وجل؛ فالتحليل والتحريم حقٌّ خالصٌ لله عز وجل، فهو سبحانه خالق الخلق، ربّ العالمين، يعلم ما يصلح عباده، وهو أحكم الحاكمين، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ولقد أنكر الله عز وجل على عباده أن يتخذوا مشرّعًا غيره سبحانه فقال عز وجل: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾[الشورى: ٢١].

وأنكر عز وجل على من يحلّلون ويحرّمون بأهوائهم فقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

وقال جل ذكره ناهيًا عباده عن التحليل والتحريم من غير علم من الله عز وجل، ومبينًا جزاء من فعل ذلك الذنب العظيم: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦ - ١١٧].

فهذه الآية خطاب للمشركين الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم وأهوائهم مما كان شرعًا لهم، ابتدعوه في جاهليتهم، قال ابن كثير: «ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلّل شيئًا مما حرم الله، أو حرّم شيئًا مما أباح الله عز

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٩/ ١١٢.

وجل بمجرد رأيه وتشهّيه»[(١)].

ولقد قرن الله تعالى القول عليه سبحانه في التحليل والتحريم بلا علم بالشرك به فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

قال الشيخ الفوزان: «وكذلك التحليل والتحريم حق لله تعالى، لا يجوز لأحدٍ أن يشاركه فيه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

فجعل سبحانه طاعة الشياطين وأوليائهم في تحليل ما حرّم الله شركًا»[(٢)].

وعلى هذا فلا ينبغي للعباد أن يحللوا أو يحرموا إلا بما جاء في شرع الله عز وجل، فالحلال ما أحله الله عز وجل، والحرام ما حرّمه الله تعالى، وليس لأحد في هذا الأمر من شيء، حتى النبي صلى الله عليه وسلم قال عن نفسه حين أكل الصحابة رضي الله عنهم من الثوم عام فتح خيبر وكانوا جياعًا ثم راحوا إلى المسجد فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(من أكل من هذه الشجرة الخبيثة شيئًا فلا يقربنا في المسجد)**، فقال الناس: حرّمت، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: **(يا أيها الناس إنّه ليس بي تحريم ما أحل الله لي؛ ولكنها شجرةٌ أكره ريحها)**[(٣)].

ولقد أبطل الله عز وجل ما افتراه المشركون على الله عز وجل من تحريم بعض أصناف الأنعام التي أحلها الله عز وجل، وما ذلك إلا افتراءً وكذبًا منهم على الله سبحانه، قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وهذه الآية الكريمة ردٌّ وإنكارٌ لما ابتدعه هؤلاء المشركون الجاهلون من تحريم ما أحلّ الله عز وجل؛ حيث كانوا إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها -أي: شقوها-، وخلوا سبيلها، فلا تركب ولا تحلب، وكان الرجل منهم يقول: إن شفيت فناقتي سائبة، ويجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكرًا فهو لألهتهم، وإن ولدتهما قالوا: وصلت الأنثى أخاها؛ فلا يذبح لها الذكر، وإذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن حرموا ظهره، ولم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٦٤.
(٢) كتاب التوحيد ص١٢٤.
(٣) أخرجه الإمام مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهى من أكل ثومًا أو بصلًا أو كراثًا أو نحوها عن حضور المسجد، رقم ١٢٨٤، ٢/ ٨٠.

يمنعوه من ماء ولا مرعى، وقالوا: قد حمي ظهره، وكلّ ذلك ما أنزل الله به من سلطان، وما هو إلا افتراء على الله عز وجل، وما هو إلا من أهوائهم ورغباتهم، يجعلون من أنفسهم مشرعين من دون الله عز وجل [(١)].

إنّ الإله الحق الذي يطعم عباده ويرزقهم هو وحده من يحلل لهم ما يشاء، ويحرّم عليهم ما يشاء، ومن ادعى تحليلًا أو تحريمًا من غير هدًى من الله عز وجل فقد افترى على الله الكذب، وحمّل نفسه إثمًا مبينًا.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ١١٦.

الرسل بشر يأكلون الطعام

إنّ الله عز وجل قد أرسل الرسل والأنبياء لهداية الناس، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، يدعونهم إلى عبادة ربّهم، مبشرين ومنذرين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال سبحانه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

وكان من حكمة الله عز وجل ورحمته بعباده أن اصطفى هؤلاء الرسل والأنبياء من بين البشر، ولم يجعلهم من الملائكة أو خلقًا آخر؛ وذلك لأنّ الرّسول إذا كان من جنس من أرسل إليهم كان أقدر على حمل الرسالة، وأعلم بحال المرسل إليهم، وكان أدعى لقبول دعوته، وهذا أمر بدهي واضح، لا يحتاج إلى حجة وبرهان، وهذا ما يقتضيه العقل، وتوجبه الفطرة؛ بل إنّ من حكمة الله عز وجل أن يبعث الرسول من نفس القوم المرسل إليهم، يعرفهم ويعرفونه؛ يعرف حالهم، ويعرفون حسبه ونسبه وخلقه وصدقه، ليكون أدعى إلى إيمانهم به، وأسرع لاستجابتهم له.

فكلّ من بعث الله عز وجل من الرسل والأنبياء كانوا رجالًا من البشر، قال الله عز

وجل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وكانوا جميعًا يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويسعون في قضاء حوائجهم كغيرهم من البشر، قال الله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وهذا كلّه لا ينقص من قدرهم، ولا يقلل من شأنهم، ولا يخدش رسالتهم التي بعثهم الله عز وجل بها؛ إذ الرّسل والأنبياء بشر كسائر البشر، إلا أنّ الله عز وجل قد اصطفاهم بإنزال وحيه عليهم، وبتكليفهم بحمل رسالته، وتبليغ دعوته.

ولقد أنكر الله عز وجل على الكافرين المعاندين -من مشركي مكة- حينما عجبوا من كون الرسول المرسل إليهم بشر مثلهم، وأنكروا أن يرسل الله عز وجل إليهم محمدًا وهو بشرٌ يأكل الطعام كما يأكلون، ويمشي في الأسواق للبيع والشراء وابتغاء المعاش كما يمشون[١]، وليس لهؤلاء المكذبين في دعواهم تلك من حجّةٍ أو دليل، وما أرادوا بذلك إلا أن يلبسوا الحق بالباطل، ويضلوا العباد عن الصراط المستقيم، قال الله عز وجل مخبرًا عن أولئك المكذبين الجاحدين: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

فهؤلاء المشركون المكذبون الذين كفروا بنبوة محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وكذبوا بها، وجحدوها مع علمهم بصدقه فيما يخبر به عن ربّه عز وجل اعتمدوا في تكذيبهم هذا على شبهة واهية، وهي كون النبي محمدٍ صلى الله عليه وسلم بشرًا مثلهم؛ يأكل الطعام، ويمشي في الطرق والأسواق كما يمشي سائر الناس؛ يطلب المعيشة، فهو ليس بملك ولا بملك؛ لأنّ الملائكة لا تأكل، والملوك لا تتبذّل في الأسواق، فعجب -أولئك المكذبون- أن يكون الرسول مساويًا للبشر، لا يتميز عليهم بشيء[٢].

وشبهتهم تلك مردودة عليهم، إذ لا يقبلها عقل، ولا يرتضيها منطق؛ فما العجيب في كون الرسول بشرًا؟!، وإنّما جعله الله بشرًا ليكون قريبًا ممن أرسل إليهم، مجانسًا لهم، ولم يجعله الله عز وجل ملكًا من الملوك المتكبرين، الذين يمتنعون من المشي في الأسواق؛ لأنّ ذلك من فعل الجبابرة، ولأنّه أمر بدعائهم فاحتاج أن يمشي بينهم يبلغهم دعوة ربهم عز وجل[٣].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٤٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٠/ ٢٨٧.

(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٦/ ٧٣.

ولقد بيّن الله عز وجل أنّ هذا القول الباطل من أولئك المكذبين قد سبقهم به إخوانهم الذين سبقوهم بالكفر والتكذيب ممن كذبوا رسل الله عز وجل على مر العصور؛ فقد قالت عاد عن نبيّهم هود عليه السلام: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ۝٣٣ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرًا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣- ٣٤]، وقالت ثمود عن نبيّهم صالح عليه السلام: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤].

وقال فرعون وقومه عن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧].

ولذا قال الله عز وجل مخاطبًا كفار قريش: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾ [التغابن:٥-٦].

فهذا ديدن المكذبين المعاندين، يثيرون الشّبه والأباطيل، ويجعلون منها سببًا يحرمهم من الإيمان بالله عز وجل وبرسله، ويصدّون بها الناس عن سبيل الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٤].

ولقد ردّ الله عز وجل على تلك الشبهة الباطلة، وكذّب من قال بها، «وبيّن سبحانه أنّ الرسل يأكلون، ويمشون في الأسواق، ويتزوجون، ويولد لهم، وأنّهم من جملة البشر؛ إلا أنّه فضلهم بوحيه ورسالته، وأنّه سبحانه لو أرسل للبشر ملكًا لجعله رجلًا، وأنّه لو كانت في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين، لنزّل عليهم ملكًا رسولًا؛ لأنّ المرسل من جنس المرسل إليهم»[1]، وقد جاء بيان ذلك في كثير من آيات الكتاب العزيز؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨﴾ [الأنبياء: ٧ - ٨].

وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗ﴾[الرعد: ٣٨].

وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾[يوسف: ١٠٩].

وقد أمر الله عز وجل نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يصدع أمام قومه بأنّه بشرٌ مثلهم، ليس غريبًا عنهم، وما يميّزه عنهم أنّ الله عز وجل قد أوحى إليه، واصطفاه ليكون

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ١٨.

مرسلًا إليهم -والبشرية لا تنافي الرسالة-، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

وأخبر سبحانه وتعالى أنّ الرسل السابقين قد قالوا مثل ذلك لأقوامهم ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١].

فهذه من سنّة الله عز وجل، أن يبعث الرسول من جنس المرسل إليهم، وما ينبغي أن يقال: لم لم يبعث الله عز وجل ملكًا رسولًا؟، إذ كيف للبشر أن يستفيدوا من ملك يغايرهم في أصل الخلقة؟، ويخالفهم في الحقيقة والصفات؟ قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥].

«فلو كان في الأرض ملائكة يسكنوها مطمئنين لكان الرسول إليهم من الملائكة؛ ليقع الإفهام، وأمّا البشر فلو بعث إليهم ملكٌ لنفرت طبائعهم من رؤيته، ولم تحتمله أبصارهم، ولا تجلدت له قلوبهم»(١).

ولقد ردّ الله عز وجل على الذين غالوا في عيسى عليه السلام، وقالوا بأنّه إله من دون الله عز وجل، وبيّن سبحانه أنّ عيسى عليه السلام ما هو إلا بشر اصطفاه الله عز وجل بالرسالة، له صفات البشر؛ يأكل الطعام، ويبتغي المعاش، وهذا حال الرسل أجمعين، ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]؛ وبهذا فإنّ أكل الرسل عليهم السّلام للطعام ليس نقصًا فيهم ولا عيبًا؛ بل هذه طبيعتهم كغيرهم من البشر، ولا يعتبر أكلهم للطعام متناقضًا مع كونهم رسلٌ من الله عز وجل.

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٧٩.

أنواع الأطعمة في القرآن الكريم

لقد ذكر الله عز وجل في كتابه العزيز أصنافًا عديدةً من الأطعمة؛ حيث ذكر سبحانه أصنافًا من الفاكهة؛ كالأعناب، والرمان، والنخيل، والتين، والثمرات، وذكر سبحانه الحبّ، والزيتون، والأبّ(1)، والعسل، واللّبن، وأصنافًا من اللحوم، كلحوم الطير، والأنعام، ولحوم ما أخرج من البحر، وغير ذلك من الأطعمة.

ومن تأمل فيما ذكر من الأطعمة في كتاب الله عز وجل يجد أنّ الله عز وجل قد ذكر تلك الأطعمة إمّا على سبيل تعداد نعمه سبحانه على عباده، والتنبيه على منافع بعض الأطعمة، ودعوة الإنسان إلى التفكر والتأمل كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢)﴾ [عبس: ٢٤-٣٢].

وإمّا على سبيل بيان قدرة الله عز وجل في خلقه وبديع صنعه، كما في قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وإمّا على سبيل التشريع، وبيان ما أباح سبحانه لعباده، وما حرّم عليهم من الأطعمة، كقوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وإمّا على سبيل بيان طعام أهل الجنّة، وما أعد الله عز وجل لهم من نعيم مقيم، وذلك كثيرٌ في القرآن المجيد، منه قول الله سبحانه: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣)﴾ [الواقعة: ٢٧ - ٣٣].

وقوله: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١)﴾ [الواقعة: ٢٠- ٢١].

ونقف في هذا المبحث بإذن الله تعالى على أنواع الأطعمة في القرآن الكريم من حيث الحلّ والحرمة، والتعرف على شيء من حكمة الباري سبحانه في التحليل والتحريم.

(1) الأب هو كل ما أنبتت الأرض مما يأكله الدواب ولا يأكله الناس.
انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٢٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٤/ ٢٥٢

أولًا: الأطعمة المباحة:

إنّ من رحمة الله عز وجل بعباده، وعظيم فضله عليهم أن خلق لهم أصنافًا متنوعةً من الأطعمة والأغذية والأشربة؛ فمنها الجامد ومنها اللّين، ومنها الحلو ومنها المالح، ومنها الحار ومنها البارد، ومنها ما ينبت في الصيف ومنها ما ينبت في الشتاء، ومنها غير ذلك؛ ولم يجعل سبحانه طعام العباد شيئًا واحدًا؛ تسأم منه النفوس، وتملّه الأجساد.

ومن كرمه سبحانه أن جعل عامّة ما خلق لعباده من الطعام حلالًا طيبًا، ولم يحرّم عليهم إلا قليلًا من ذلك، وجعل سبحانه كلّ ما كان طيبًا رزقًا حلالًا للعباد، وأمر سبحانه عباده أن يأكلوا منه، ويشكروا ربّهم عليه.

قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وهذا الأمر قد أمر الله عز وجل به من قبل رسله عليهم السلام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون: ٥١].

والطيبات يراد بها: كلّ ما أحلّ الله عز وجل لعباده من الطعام والشراب، فطاب بتحليل الله عز وجل له[١]، والطيبات أيضًا هي ما يستطاب ويستلذ من مباحات المأكل والفواكه[٢].

فما أعظم نعم الله عز وجل على العباد؛ إذ أباح لهم الطيبات؛ يأكلون منها، ويستلذون بطعمها وريحها، وتتقوى أجسامهم بالتغذي عليها، قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة: ٤].

قال الفخر الرازي: «واعلم أنّ الطيب في اللغة هو المستلذ، والحلال المأذون فيه يسمى أيضًا طيبًا تشبيهًا بما هو مستلذ؛ لأنهما اجتمعا في انتفاء المضرة؛ فلا يمكن أن يكون المراد بالطيبات هاهنا المحللات، وإلا لصار تقدير الآية: قل أحلّ لكم المحللات، ومعلومٌ أنّ هذا ركيك؛ فوجب حمل الطيبات على المستلذ المشتهى، فصار التقدير: أحلّ لكم كلّ ما يستلذ ويشتهى»، ثم قال: «ثم اعلم أنّ العبرة في الاستلذاذ والاستطابة بأهل المروءة والأخلاق الجميلة»[٣].

وقد امتنّ الله عز وجل على عباده بأن أحلّ لهم الطيبات، وذلك في سياق تذكير العباد بعظيم نعم الله عز وجل عليهم، وسعة رحمته بهم، وجزيل عطائه لهم، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٣١٧.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٨/ ٤٠.

(٣) مفاتيح الغيب ١١/ ٢٩٠.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦١ – ٦٤].

يقول السعدي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: «وهذا شامل لكل طيب؛ من مأكل، ومشرب، ومنكح، وملبس، ومنظر، ومسمع، وغير ذلك من الطيبات التي يسّرها الله عز وجل لعباده، ويسر لهم أسبابها»[1].

فالطعام الحلال هو كل طعام طيب، أحلّه الله عز وجل لعباده، وغالب الأطعمة طيبة محللة، ولا ينبغي أن يقال عن طعام: إنّه حرام إلا إذا ثبت تحريمه في كتال الله عز وجل، أو في سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، والقاعدة في ذلك أنّ الأصل في الأطعمة الحل إلا ما ثبتت حرمته.

وقد ذكر الله عز وجل أنّ من خصائص النبي محمد صلى الله عليه وسلم أنّه يحلّ لمن اتبعه الطيبات، ويحرّم عليهم الخبائث، فقال تعالى مادحًا من اتبع النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب، ومبيّنًا بعض أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فمما جاء به هذا النبي الكريم أنّه يحلّ الطيبات.

ولما أحلّ الله عز وجل لعباده الطيبات؛ فإنّه سبحانه نهاهم أن يحرّموا على أنفسهم شيئًا من تلك الطيبات التي أحلّها سبحانه وتعالى لهم؛ فإنّ الله عز وجل أراد من عباده أن يتمتعوا بنعمه، وأن يأكلوا مما أحلّه لهم، ولا ينبغي أن يحرّم العبد على نفسه شيئًا أحلّه الله عز وجل له، فقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٧– ٨٨].

فليس لأحد من المسلمين أن يتعدّ حدود الله عز وجل، بتحريم شيء على نفسه مما أحل الله لعباده المؤمنين من طيبات المطاعم والملابس والمناكح، ولا فضل في ترك شيء مما أحله الله لعباده، وإنّما الفضل والبر في فعل ما ندب الله عز وجل عباده إليه، وعمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنه لأمته، واتبعه على منهاجه

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٧٤١.

الأئمة الراشدون[1].

ويفهم من هاتين الآيتين أنّ الأكل من الحلال، والتلذذ بالطيبات لا يتنافي مع تقوى الله عز وجل؛ بل العبد التقي ينعم بما أحلّ الله له، ويشكر المنعم سبحانه على عطائه ونعمه، وليس من التقوى تحريم الطيبات، وهجر المباحات، وقد أكل النبي صلى الله عليه وسلم ثريد اللحم ومدحه، وكان يحب الحلوى، ويحب الطيب، ويتزوج النساء[2].

قال القرطبي: «قال علماؤنا: في هذه الآية وما شابهها، والأحاديث الواردة في معناها ردٌّ على غلاة المتزهدين، وعلى كل أهل البطالة من المتصوفين؛ إذ كل فريقٍ منهم قد عدل عن طريقه، وحاد عن تحقيقه»[3].

فالعبد التقي ينعم بما أحلّ الله من الطيبات، ولا يعتدي بالإسراف أو التقتير، ولا يتعدّى الحلال إلى الحرام، ولا يحرّم ما أحل الله سبحانه وتعالى[4].

ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**إنّ الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**)[5].

ومن نعمته سبحانه على عباده أنّه أباح لهم التمتع بالحلال الطيب من الأطعمة وغيرها، قال الصنعاني: «في هذه الأحاديث دلالة أنّ الله تعالى يحب من العبد إظهار نعمته في مأكله وملبسه؛ فإنّه شكر للنعمة فعليّ، ولأنّه إذا رآه المحتاج في هيئة حسنة قصده ليتصدق عليه»[6].

ثانيًا: الأطعمة المحرّمة:

لقد حرّم الله عز وجل بعض الأطعمة وبعض الأشربة على عباده، ولا شكّ أنّ لهذا التحريم حكمًا عظيمةً أرادها الله عز وجل؛ قد يظهر للعباد بعضها، ويخفى عليهم بعضها الآخر، والله عز وجل يحل ما يشاء، ويحرّم ما يشاء، والعبد يسمع ويطيع مولاه، ولا يتجاوز حدوده، فالعبد عبدٌ، والرّب ربٌّ.

وإنّ من رحمة الله عز وجل بعباده أن جعل الأطعمة المحرمة قليلةً محصورةً، يسهل على العباد معرفتها، ويسهل عليهم تجنبها، ولا يتضررون بالامتناع عنها؛ بل الخير كلّه في التزام أمر الله عز وجل، وعدم مجاوزة حدوده؛ فإنّه سبحانه يشرع لعباده ما يصلحهم، وهو سبحانه أعلم بما ينفعهم، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥٢٢.
(٢) انظر: الوسيط، طنطاوي ٤/ ٢٦٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٢٦٢.
(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٧٤.
(٥) أخرجه الترمذي في سننه، باب ما جاء إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، رقم ٢٨١٩، ٤/ ٥١٠.
قال الترمذي: هذا حديث حسن.
والحديث صححه الألباني في غاية المرام، رقم ٧٥.
(٦) سبل السلام ٢/ ٨٦.

وقد بيّن الله عز وجل المحرمات من الأطعمة منذ العهد المكي، حيث أنزل الله عز وجل قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

فهذه الآية المكية جاءت في سياق الردّ على المشركين الذين كانوا يحرّمون على أنفسهم بعض الأطعمة، ويفترون على الله عز وجل الكذب بأنّه قد حرّمها، قال تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣].

ثمّ جاءت هذه الآية: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ﴾ لتبين أنّ الحرام ليس ما حرّمه أولئك الجهال على أنفسهم، ونسبوا التحريم إلى الله كذبًا وافتراءً عليه؛ وإنّما الحرام ما حرّم الله عز وجل، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم[(١)].

فالمحرمات الواردة في هذه الآية ليست جميع المحرمات؛ لأنّ هذه الآية مكيّة، وقد نزل بعدها تحريم بعض الأطعمة في العهد المدني؛ كما في سورة المائدة، في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٣].

وقد ورد في السّنة تحريم بعض الأطعمة أيضًا؛ كلحوم الحمر الأهلية، وكل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير.

والحصر الوارد في آية الأنعام محمول على أنّه لم يكن في الشريعة في ذلك الوقت محرّمٌ غير هذه الأشياء، ثم نزلت سورة «المائدة» بالمدينة. وزيد في المحرمات كالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة والخمر وغير ذلك، وكذلك فقد حرّم الله عز وجل على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بالمدينة أكل كلّ ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، وعلى هذا فلا تعارض بين الآيتين، وليست آية الأنعام منسوخة بآية المائدة -وقد ذهب بعض المفسرين إلى القول بذلك-؛ بل كلتا الآيتين محكمتين[(٢)].

ونلاحظ في الأطعمة المحرّمة أنّها إمّا محرمة لذاتها؛ كلحم الخنزير، والدم المسفوح، وكل ذي ناب من السباع وغيرها، وهذه المحرمات مستقذرة في ذاتها، وإمّا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٩٤، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٥٠.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١١٥، البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٢٤٣.

أن تكون تلك الأطعمة في الأصل حلالًا، ثم عرض عليها ما جعلها محرّمة؛ كالميتة، والمنخنقة، والموقوذة..، فهذه المحرمات إنّما حرّمت لما طرأ عليها من الموت دون تذكية شرعية.

ثالثًا: حكمة التحليل والتحريم:

إنّ ممّا لا شك فيه أنّ تحليل الله عز وجل لكثيرٍ من الأطعمة، وتحريمه لبعضها ينطوي على كثيرٍ من الحكم التي أرادها الله عز وجل؛ وقد يظهر للعباد بعض هذه الحكم، ويخفى عليهم بعضها، والذي يجب أن يقال أولًا: إنّ الله عز وجل يتصرّف في ملكه كيف شاء، ويشرع لعباده ما يريد، وهو سبحانه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ولا ينبغي للعبد أن يقول: لم أحلّ الله هذا الطعام وحرّم ذاك؟ بل الواجب على العبد أن يسلم لأمر الله عز وجل وهو مطمئن البال، واثق بربّه العليم الحكيم سبحانه وتعالى، وبعد ذلك إن ظهر له شيء من حكم التحليل والتحريم فحسن، وإن لم يظهر له فإنّه لا يعترض على أمر الله عز وجل؛ بل يسلّم ويطيع.

والمسلم يعلم أولًا أنّ الله عز وجل يبتلي العباد ويختبرهم؛ يبتليهم بما شرع لهم من الأحكام، وبما فرض عليهم من الواجبات، يبتليهم بالحلال والحرام، يبتليهم بالأوامر والنواهي ليميز سبحانه المطيع من غيره، وليعلم الله -وهو سبحانه أعلم بعباده- من يسلّم ويستجيب لربّه ممن يعترض وينقلب على عقبيه، وقد أخبر الله عز وجل بهذه الحكمة من التشريع في الآيات التي أمر فيها المؤمنين بتحويل قبلتهم إلى المسجد الحرام، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال السعدي عن هذه الآية: «دلّت الآية على أنّه لا يعترض على أحكام الله عز وجل إلا سفيهٌ جاهلٌ معاندٌ؛ وأمّا الرشيد المؤمن العاقل فيتلقى أحكام ربّه بالقبول والانقياد والتسليم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].
وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]»(١).

ولا شكّ بأنّ فيما أحلّ الله عز وجل لعباده منافع جمّة، ومصالح عظيمة؛ ففي تغذي الإنسان على الطعام الحلال سلامة بدنه، وقوام صلبه، واستقامة صحته، ووفرة قوته، وتقويه على القيام بما أمره الله عز

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٧٠.

وجل من العبادة وعمارة الأرض.

وبتغذي الإنسان بالأطعمة الحلال يشعر العبد بنعم الله الوفيرة عليه، وبتلذذه بالطيبات تزيد محبته لمن خلق تلك الطيبات، وأحلّها للعباد، ولا شكّ بأنّ المؤمن كلما ازداد شعورًا بنعمة الله عز وجل عليه زاد لربّه شكرًا، وامتلأ قلبه محبّة للمنعم سبحانه وتعالى، وازداد علمًا ومعرفة بفضل الله عز وجل عليه، ولا شك أنّ ذلك كله من مقاصد الدين.

وإنّ الله عز وجل ما خلق الطيبات ليحرّمها على العباد؛ وما خلقها ليتخذها العباد وسيلة للمعصية والفساد؛ بل خلقها سبحانه ليتنعموا بها، ولتكون وسيلة يصلون بها إلى مرضاة ربّهم جل وعلا، وتحصيل النعيم الأكبر بالفوز بدار النعيم في الآخرة.

هذه بعض الحكم من تحليل الطيبات؛ أمّا عن حكم تحريم الخبائث فلا شكّ بأنّ في تحريم الله عز وجل لتلك الأطعمة المحرّمة نفعٌ للعباد، ومصلحة عظيمة لهم؛ فإنّ تلك الأطعمة المحرّمة إنّما هي ممّا تأباه الفطر السليمة، وتستقذره النفوس الرشيدة، ولا يمكن لعبدٍ عاقلٍ أن يجد في تلك المحرمات أمرًا طيبًا، أو فائدة مرجوّة؛ فالحرام ضررٌ محض، وفي اجتنابه السلامة والمعافاة.

ومن الحكم التفصيليّة لتحريم بعض الأطعمة والأشربة:

أولًا: الحفاظ على العقل الذي به تتم عبادة الله عز وجل، وعمارة الأرض؛ وذلك بتحريم كلّ ما يعطل العقل كالخمر والمسكرات والمخدرات.

ثانيًا: الحفاظ على النفس؛ وذلك بتحريم كلّ ما يحدث الضرر بها، أو يشكّل خطرًا عليها.

ثالثًا: حفظ المال بعدم إضاعته فيما لا نفع فيه.

رابعًا: الوقاية من الأمراض الناتجة عن تلك الأطعمة المحرمة؛ كالدم المسفوح الذي يعد أنسب مكان لانتشار الجراثيم ونموها.

خامسًا: من حكم تحريم لحم الخنزير أنّه قد اكتشف أنّ له قابلية كبرى لجميع الأمراض الميكروبية المعدية؛ أمّا الميتة فينحبس الدم فيها في الشرايين، مما يؤدي إلى التعفن وتجمع الجراثيم والميكروبات الضارة والسامة.

وهناك حكمٌ خاصة بتحريم أصناف معينة من الأطعمة ذكرها العلماء، ولا زال العلماء يكتشفون في الأطعمة المحرمة أضرارًا وأمراضًا خطيرة، وكلما اكتشفوا شيئًا علموا عظمة شرع الله عز وجل في تحريم تلك الخبائث.

والعبد المؤمن لا ينتظر العلماء وأهل

الطب ليكشفوا له عن أسرار التحريم؛ لأنّه يعلم أنّ ذاك التحريم إنّما هو من عند العليم الحكيم، ولا يشرع لعباده إلا الشرع الحكيم، الذي فيه استقامة الحياة، والسعادة والسرور، يقول الشيخ القرضاوي: «وليس من اللازم أن يكون المسلم على علمٍ تفصيليٍّ بالخبث أو الضرر الذي حرّم الله من أجله شيئًا من الأشياء، وقد لا ينكشف خبث الشيء في عصره، ويتجلى في عصر لاحق، وعلى المؤمن أن يقول دائمًا: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ألا ترى أنّ الله حرّم لحم الخنزير فلم يفهم المسلم من علة لتحريمه غير أنّه مستقذر، ثم تقدم الزمن فكشف العلم فيه من الديدان والجراثيم القاتلة ما فيه، ولو لم يكشف العلم شيئًا في الخنزير، أو كشف ما هو أكثر من ذلك فإنّ المسلم سيظل على عقيدته بأنّه رجس»(١).

ولا بدّ من الإشارة -أخيرًا- إلى أنّ من رحمة الله عز وجل، وعظيم كرمه على عباده أنّه سبحانه إذا حرّم على العباد شيئًا عوضهم خيرًا منه، وأبدلهم ما هو أجلّ وأنفع(٢)، فيعلم العبد أنّ الله عز وجل ما يريد أن يحرم عباده؛ وإنّما شرع لهم ما تستقيم به حياتهم، وتسعد به أنفسهم، وفي الحلال كفاية للعباد عن الحرام، قال ابن القيم: «فما حرّم الله على عباده شيئًا إلا عوضهم خيرًا منه؛ كما حرّم عليهم الاستقسام بالأزلام، وعوضهم منه دعاء الاستخارة، وحرّم عليهم الرّبا، وعوضهم منه التجارة الرابحة..، وحرّم عليهم الحرير، وأعاضهم منه أنواع الملابس الفاخرة؛ من الصوف والكتان والقطن، وحرّم عليهم الزنا واللواط، وأعاضهم منهما بالنكاح والتسري بصنوف النساء الحسان، وحرّم عليهم شرب المسكر، وأعاضهم عنه بالأشربة اللذيذة النافعة للروح والبدن..، وحرّم عليهم الخبائث من المطعومات، وأعاضهم عنها بالمطاعم الطيبات، ومن تلمّح هذا وتأمّله هان عليه ترك الهوى المردي، واعتاض عنه بالنافع المجدي، وعرف حكمة الله ورحمته وتمام نعمته على عباده فيما أمرهم به ونهاهم عنه، وفيما أباحه لهم، وأنّه لم يأمرهم بما أمرهم به حاجةً منه إليهم، ولا نهاهم عنه بخلًا منه تعالى عليهم؛ بل أمرهم بما أمرهم إحسانًا منه ورحمةً، ونهاهم عمّا نهاهم عنه صيانةً لهم وحميةً»(٣).

[انظر: الأكل: أنواع المأكولات من حيث الطيب والخبث]

(١) الحلال والحرام في الإسلام ص٢٩.
(٢) انظر: المصدر السابق ص٣٠.
(٣) روضة المحبين، ابن القيم ص١١.

الإطعام في القرآن الكريم

إنّ الحديث عن الإطعام ممّا لا ينبغي أن يغفل عنه في سياق الحديث عن الطعام في كتاب الله عز وجل؛ فلقد ذكر الإطعام في القرآن الكريم -مكيّه ومدنيّه- مرارًا، وبيّن الله عز وجل قيمة الإطعام وأهميته، وبيّن فضل المطعمين، وأنواع الإطعام، وفي ذلك تنبيه على أهمية الإطعام في دين الله عز وجل.

ومن تأمّل في الآيات التي تحدّثت عن الإطعام يجد أنّ الإطعام له مكانةٌ عظيمةٌ في الإسلام، فهو شعيرةٌ من شعائر الدين، وقربةٌ من أجلّ القربات إلى العلي الكبير، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم حينما سأله رجلٌ: أيّ الإسلام خير؟ فقال صلى الله عليه وسلم: **(تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف)**(1).

لقد أخبر القرآن الكريم بأنّ إطعام الطعام للمساكين والفقراء والأسرى المحتاجين من خصال عباد الله المخلصين، فقال عز وجل مادحًا لهم، ومبينًا لفضلهم: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٦ – ٩].

وكيف لا يكون للإطعام تلك المكانة الرفيعة في دين الله عز وجل ؟! وقد جعله الله سبحانه من الأمور التي بها يجوز العبد العقبة الكبرى يوم القيامة، فهو سبب للنجاة، وموصل للفلاح، قال الله عز وجل: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾ [البلد: ١١ – ١٨].

وإنّ ممّا يدلّ على أهمية الإطعام في الإسلام أنّ القرآن الكريم أخبر بأنّ عدم إطعام الفقراء والمساكين سيكون سببًا للوقوع في عذاب الله عز وجل يوم القيامة، قال الله عز وجل مخبرًا عن أصحاب النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤٢ – ٤٤].

بل إنّ الله عز وجل قد ذمّ الذي لا يحضّ على طعام المسكين، فقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١ – ٣].

فقد قرن الله عز وجل عدم الحضّ على طعام المسكين مع الكفر بالله، والتكذيب

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل، رقم ١٦٩، ١/٤٧، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

بالدين، والتهاون في الصلاة، ولا شكّ بأنّ في ذلك تشنيع على الذي لا يحضّ على طعام المسكين، فلا هو يطعم، ولا هو يحضّ غيره على الإطعام.

ولقد أكّد النبي صلى الله عليه وسلم على أهمية الإطعام، وعظيم أجره عند الله عز وجل، وقد قرنه مع فضائل الأعمال، فقال صلى الله عليه وسلم: **(أيّها النّاس؛ أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلّوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام)**[1]

وحذّر رسول الله صلى الله عليه وسلم من البخل بالطعام والشراب عن الفقراء والمساكين؛ من الأقارب والجيران وغيرهم، وبيّن أنّ ذلك ليس من شيم الإيمان، ولا من أخلاق الإسلام، فقال صلى الله عليه وسلم: **(ليس المؤمن الذي يشبع و جاره جائع إلى جنبه)**[2].

وفي النقاط الآتية بإذن الله تعالى بيان لأصناف المطعمين، وأنواع الإطعام وشروطه.

أولًا: أصناف المُطْعَمين:

لقد بيّن الله عز وجل أنّ في المجتمع أصنافًا من الناس يستحقون الإطعام، ويقدمون على غيرهم في ذلك؛ لأنّهم أشدّ حاجة للطعام، بسبب ما ابتلاهم الله عز وجل من فقرٍ أو يتمٍ أو حاجةٍ، ومعلومٌ أنّ العمل الصالح يكونُ أعظم إذا ما كان نفعه أكبر.

ومن تتبع آيات الكتاب العزيز يجد أنّ الله عز وجل وجّه المطعمين إلى توجيه إطعامهم إلى الأصناف الآتين من الناس:

١ . المساكين.

وهم أكثر من أمر الله عز وجل بإطعامهم في القرآن الكريم، وأغلب الآيات التي ذكرت الإطعام إنّما جعلته للمساكين، والمساكين جمع مسكين، والمسكين هو الذي لا شيء له، وقيل: هو الذي له بعض الشيء؛ ولكن لا يسدّ حاجته، ولا يكفيه[3]، وقد اختلف أهل اللغة والمفسرون والفقهاء في تحديد الفرق بين المسكين والفقير، ومن منهم أشدّ حاجة، فقال البعض:

(١) أخرجه الترمذي في سننه، رقم ٢٤٨٥، ٤/ ٢٦٤، عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في الصحيحة، رقم ٥٦٩.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب البيوع، رقم ٢١٢٦، ٢/ ١٢، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.
وأخرجه الطبراني في الكبير عن أنس رضي الله عنه، بلفظ (ما آمن بي من بات شبعانًا وجاره جائع إلى جنبه)، رقم ٧٥١، ١/ ٢٥٩.
والحديث صححه الألباني في الصحيحة، رقم ١٤٩.

(٣) انظر: معاني القرآن، النحاس ٤/ ٢٧٤، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٣٨٥.

هما مترادفان[1]، وقال بعضهم: الفقير أشدّ حاجة، وقال آخرون: المسكين أشدّ حاجة[2]، والذي يعنينا هنا أنّ المسكين هو من كان في عوز وحاجة، ويدخل الفقير في هذه الصفة.

ولعلّ الحكمة في الإكثار من الوصية بإطعام المساكين أنّ هذا النوع من الناس في حاجة شديدة إلى العناية والرعاية؛ لأنّهم -في الغالب- يفضلون الاكتفاء بالقليل على إراقة ماء وجوههم بالسؤال، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم عن المسكين: **(ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان؛ ولكنّ المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن به فيتصدّق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس)**[3][4].

وقد أخبر الله عز وجل أنّ في إطعام هؤلاء المساكين منفعة كبيرة للعبد يوم القيامة؛ إذ بهذا العمل الصالح تقتحم العقبة، وتنال الجنة، قال الله عز وجل: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾ [البلد: ١١ - ١٦].

والمسكين ذو المتربة هو صاحب الفقر الشديد؛ كأنّه لصق بالتراب لشدّة حاجته، وقال ابن عباس رضي الله عنه: هو المطروح في التراب لا يقيه شيء[5].

وقد جعل الله عز وجل للمساكين حظًّا وافرًا من الإطعام، إذ إنّ كثيرًا من الكفارات إنّما هي طعامٌ يصرف للمساكين، ففي كفارة اليمين أمر الله عز وجل بإطعام عشرة مساكين: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡ﴾ [المائدة: ٨٩].

ومن ظاهر من زوجته، ولم يستطع تحرير رقبة ولا صيام ستين يومًا فعليه إطعام ستين مسكينًا، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗا﴾ [المجادلة: ٣- ٤].

---

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٤٤٨.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٦٧، وقد فصل القرطبي القول في المسألة، فذكر تسعة أقوال لأهل اللغة والمفسرين والفقهاء انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٦٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: (لا يسألون الناس إلحافًا)، رقم ١٤٧٩، ٢/ ١٢٥.

(٤) انظر: الوسيط، محمد سيد طنطاوي ١/ ٣٦٣.

(٥) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٩/ ١٣٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٤/ ٣٦١.

وكذلك فقد جعل الله عز وجل فدية الإفطار في رمضان بسبب كبر سنٍّ، أو مرضٍ لا يرجى برؤه فدية طعام مسكين، قال تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤].

ومن قتل صيد البر وهو محرم فعليه كفارة طعام مساكين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ [المائدة: ٩٥].

٢. اليتامى.

ولا يخفى حال اليتيم من ضعف وعوز، وفقدان للمعيل؛ فكانت الوصية باليتامى عظيمة في كتاب الله عز وجل، ومن الوصية بهم أنّ الله عز وجل حثّ على إطعامهم ورعايتهم؛ بل وجعل ذلك من عظيم القربات، وأجلّ الطاعات، قال تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١١ – ١٦].

فإطعام اليتامى في أيام المجاعات من خير ما تجتاز به العقبة، وتنال به الرحمة، وإنّما خص الإطعام في يوم المسغبة والمجاعة لأنّ الحاجة إليه أشدّ، ويكون الطعام في مثل تلك الأوقات عزيزًا، قال الفخر الرازي: «واعلم أنّ إخراج المال في وقت القحط والضرورة أثقل على النفس، وأوجب للأجر»[(١)].

ولا شكّ بأنّ في إطعام اليتامى مصلحة عظيمة للمجتمع، وخير كبير للأمة، إذ في إطعامه سدٌّ لحاجته، ومواساة لحاله، ومن ثمّ صلاح لأمره، قال ابن عاشور: «ووجه تخصيصه بالإطعام أنّه مظنة قلة الشبع؛ لصغر سنّه، وضعف عمله، وفقد من يعوله، ولحيائه من التعرض لطلب ما يحتاجه؛ فلذلك رغّب في إطعامه، وإن لم يصل حدّ المسكنة»[(٢)].

٣. الأسرى.

ولقد ذكر الله عز وجل إطعامهم رفقًا بحالهم، فالأسير محبوس، ممنوع من أهله وماله، وهو في ضعف وحاجة، فكان في إطعامه الفضل والطاعة، وقد مدح الله عز وجل من يطعمون الأسرى بقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان: ٦ – ٨].

وقد ذكر المفسرون أقوالًا في المراد

(١) مفاتيح الغيب ٣١/ ١٦٩.
(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٥٨.

بالأسرى في الآية؛ فقالوا: هو الأسير المشرك، وقالوا: المحبوس بحق من المسلمين، وقالوا: هو العبد؛ إذ هو أسير عند سيده، وقالوا: المرأة؛ فهي أسيرة عن زوجها، وقد رجح القرطبي أنّ جميع من ذكروا داخلون في الآية [1].

والراجح -والله أعلم- أنّ المعنيين في الآية الأسرى المحبوسين؛ من المسلمين والمشركين؛ أمّا العبيد عند أسيادهم، والنساء عند أزواجهنّ فهم ليسوا بأسرى على الحقيقة، وقد جاء الحثّ على إطعامهم والإحسان إليهم -في غير هذه الآية- في نصوصٍ كثيرةٍ من الشرع الحكيم.

٤. البائس الفقير.

لقد أمر الله عز وجل بإطعام هذا الصّنف من الناس من بهيمة الأنعام التي تذبح أو تنحر تقربًا إلى الله عز وجل من الهدي والأضاحي، قال الله عز وجل: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٧-٢٨].

والمراد بالبائس الفقير في الآية: من كان شديد الفقر، عظيم الحاجة، وقد وصفه الله بالفقير بعد وصفه بالبائس لمزيد إيضاح وبيان [2].

٥. القانع والمعتر.

وقد أمر الله عز وجل بإطعامهم من البدن التي تذبح هديًا أو أضحية، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج: ٣٦].

وللمفسرين أقوال كثيرة في معنى القانع والمعتر:

منها: أنّ القانع هو الذي يسأل الناس، والمعتر هو الذي لا يسأل.

ومنها: أنّ القانع هو المتعفف، والمعتر هو السائل.

ومنها: أنّ القانع هو السائل، والمعتر هو الذي يعتريك ولا يسأل.

وغير ذلك من أقوال [3].

والجامع بين تلك الأقوال جميعًا أنّ القانع والمعتر من أصناف الناس الفقراء في المجتمع، ولا شكّ بأنّ الشرع قد أوصى بالعناية بهم وإطعامهم.

---

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ٤٣٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٢٩.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٦٤٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٣٦، زاد المسير، ابن الجوزي ٥/ ٤٣٣.

فهؤلاء هم الذين حثّ القرآن الكريم على إطعامهم، ورغّب في ذلك ترغيبًا عظيمًا؛ بل أوجب إطعامهم في الكفارات والفدية، ولا شكّ بأنّ في ذلك تنبيهٌ على فضل الإطعام وأهميته.

ثانيًا: شروط الإطعام:

إنّ الإطعام عبادة لله عز وجل، يتقرب بها العبد لربّه سبحانه وتعالى، ومن المعلوم أنّ لأيّ عبادة من العبادات التي ينال بها رضا الله عز وجل شرطين:

الأول: الإخلاص لله عز وجل.

والثاني: مطابقة العمل لشرع الله عز وجل، وموافقته لما في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

وقد قال الله سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(إنّ الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتغى به وجهه)**[(١)].

وقد بيّن الله عز وجل أنّ الإطعام الذي ينال صاحبه الأجر والمثوبة هو ما كان خالصًا لوجهه الكريم، ولم يكن فيه شرك أو رياء، فلقد مدح الله عز وجل من يطعمون المساكين واليتامى ابتغاء وجه الله عز وجل، لا يطعمونهم طلبًا للشكر والثناء من الناس، قال الله تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨-٩].

وإنّما يريدون بهذا العمل الصالح وجه الله عز وجل، وابتغاء مرضاته، فهم مؤمنون بالله واليوم الآخر، مؤمنون بالجزاء في الآخرة، ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾ [الإنسان: ١٠].

ولمّا كانت نيتهم خالصة، وأعمالهم صافية، كان لهم الثواب الجزيل، والأجر الكريم، ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ١٣ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا﴾ [الإنسان: ١١ – ١٤].

ومعلوم أنّ العمل الصالح لا بدّ أن يكون مقرونًا بالإيمان؛ إذ العمل الصالح من غير المؤمن لا ينفع، ولا يقبل الله عز وجل من الكافرين عملًا صالحًا، وكثيرًا ما قرن الله عز وجل بين الإيمان والعمل الصالح في كتابه العزيز[(٢)]، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢].

(١) أخرجه النسائي في سننه، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر، رقم ٣١٤٠، ٦/ ٣٣٢.
وصححه الألباني في الصحيحة، رقم ٥٢.

(٢) ورد قول الله عز وجل: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في القرآن الكريم خمسين مرة.
انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي ص٤١١- ٤١٢.

ولمّا بيّن الله عز وجل أنّ إطعام اليتامى والمساكين في أيام الجوع والشدة من أفضل الأعمال الصالحات، فقال سبحانه: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾ [البلد: ١١ – ١٦]. أتبع ذلك ببيان أنّ تلك الصالحات لا تنفع العبد إذا لم يكن معها إيمان بالله عز وجل. قال سبحانه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ۝١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ [البلد: ١٧ – ١٨].

قال البغوي: «بيّن أنّ هذه القرب إنّما تنفع مع الإيمان»[1].

ثالثًا: أنواع الإطعام:

لقد ذكر القرآن الكريم أصنافًا من الإطعام، فذكر الإطعام المطلق للفقراء والمساكين والأسرى، وذكر الإطعام من الهدي والأضاحي، وذكر الإطعام في الفدية والكفارات، وذكر الإطعام ضيافة، وفيما يأتي بيان أنواع الإطعام في القرآن الكريم:

١. الإطعام المطلق.

والمراد بذلك الإطعام في أيّ وقت، ولأيّ صنف من أصناف الناس الذين سبقت الإشارة إليهم في المطلب الأول من هذا المبحث؛ بل ويدخل في ذلك أيضًا إطعام ذوي القربى، والجيران، والأصحاب، وحتى الزوجة والأهل، فقد ورد في الشرع الحنيف ما يدلّ على فضل ذلك جميعًا.

ولا شكّ أنّ هذا الإطعام المطلق مراتب ودرجات؛ فكلّما كانت حاجة المطعم للطعام أشدّ، كان ذلك الإطعام أفضل وأجلّ، وقد مدح الله المطعمين في وقت الجوع والمسغبة، قال تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨-٩]. فمعنى على حبّه: أي في حال محبتهم لهذا الطعام وشهوتهم له[2].

وهذا النوع من الإطعام -الإطعام المطلق- قد ذمّ الله عز وجل الممتنعين عنه، وأخبر سبحانه أنّ الامتناع عنه سبب من أسباب الوقوع في العذاب يوم القيامة، فقال سبحانه: ﴿عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ﴾ [المدثر: ٤١ – ٤٤].

وذمّ الله عز وجل من لا يحضّ على هذا الإطعام فقال سبحانه: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [الفجر: ١٧ – ١٨].

٢. الإطعام في الكفارات.

وهو إطعام واجب على من وجب عليه ذلك، كمن حنث في يمينه ولم يشأ أن يعتق

(١) معالم التنزيل ٨/ ٤٤٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٤/ ٢٠٩.

رقبة، أو أن يكسو عشرة مساكين، فهذا يجب عليه أن يطعم عشرة مساكين إلا أن يكون عاجزًا عن ذلك فعليه صيام ثلاثة أيام.

قال الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

وغير ذلك من الكفارات، وقد أشرنا إلى ذلك في المطلب الأول من هذا المبحث.

٣. الإطعام في الفدية.

وقد جعل الله عز وجل هذا النوع من الإطعام واجبًا أيضًا، فمن أفطر في رمضان لكبر سنٍّ أو مرض لا يرجى برؤه، وجب عليه إخراج الفدية؛ طعام مسكين عن كلّ يوم أفطره.

قال الله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤].

وكذلك الحال فيمن أحرم بالحج، ثمّ أحصر وأصبح مريضًا أو به أذى من رأسه جاز له أن يحلق رأسه قبل أن يذبح الهدي، ووجبت عليه الفدية: صيام أو صدقة أو نسك، قال الله عز وجل: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦].

والمراد بالصدقة في الآية: إطعام ستّة مساكين[1].

٤. الإطعام ضيافة.

فإنّ من شعائر الإسلام إكرام الضيف، ومن أهم صور الإكرام تقديم الطعام والشراب، وقد أخبر الله عز وجل عن كرم ضيافة إبراهيم عليه السلام لضيفه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٦٩- ٧٠].

لقد ظنّ إبراهيم عليه السلام أنّ رسل الله عز وجل من الملائكة الكرام ضيفان من البشر، فما كان منه إلا الإسراع في إكرامهم، والتعجل في إعداد الطعام لهم، وقد ذكر الله عز وجل ذلك في كتابه مدحًا لإبراهيم الخليل عليه السلام، وبيانًا لمناقبه وفضله، وحثًّا للعباد على التأسي به، والسير على خلقه.

ويؤخذ من قصة إبراهيم عليه السلام مع ضيفه هؤلاء أشياء كثيرة من آداب الضيافة؛ منها: تعجيل القرى والطعام، ومنها: أن يقدم

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ١٧٧.

للضيف أحسن الموجود، ومنها: تقريب الطعام إلى الضيف، ومنها: ملاطفته بالكلام بغاية الرفق[1].

وفي مقابل مدح إبراهيم عليه السلام في إكرامه لضيف، أخبر الله عز وجل عن قرية تخلق أهلها باللؤم والبخل وسوء معاملة الضيفان، وبلغ بهم الحدّ في البخل أن طلب منهم عابرا سبيل -موسى عليه السلام والرجل الصالح- أن يطعموهما فأبوا وبخلوا، قال الله عز وجل مخبرًا عن حال موسى عليه السلام والعبد الصالح مع أهل تلك القرية: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ [الكهف: ٧٧].

لقد بلغ البخل واللؤم بأهل تلك القرية أن منعوا طعامهم عن عابر السبيل، وقد طلب منهم عابر السبيل الطعام فأبوا، مع أنّ الضيافة كانت شائعة في الأمم من عهد إبراهيم عليه السلام، وهي من العادات الفاضلة المتعارف عليها بين الناس[2].

وقد أكّد النبي صلى الله عليه وسلم على أهمية إكرام الضيف، وبيّن عليه السلام أنّ ذلك من الإيمان؛ ولا ينفك إكرام الضيف عن المؤمنين، قال صلى الله عليه وسلم: **(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه)**[3].

وفي ختام ذلك المبحث تبيّن مدى اهتمام القرآن الكريم بفضيلة إطعام الطعام، وأنّ تلك الفضيلة يشترط لها الإخلاص لله عز وجل، وأن تكون مقرونة بالإيمان -كغيرها من الأعمال الصالحة-، وبيّن القرآن أصناف المطعمين، وأكّد على حقّ المساكين واليتامى، وبيّن أنّ الإطعام له أنواع وصور متعددة، وكلّما كان الطعام المقدم محتاجًا إليه، كان جزاؤه أعظم.

والناس اليوم يحتاجون إلى تلك الشعائر الربانية، وتلك الرحمات الإلاهية، من إطعام الطعام، والسعي على المساكين والأيتام، فكم من بيوت لا يجد أهلها كسرة خبز، وكم من دول يموت شعبها جوعًا، وكم من طفل بات باكيًا لم تجد أمّه ما تسد به رمقه، وفي جانب آخر من حياة الناس نرى أكوامًا من الطعام قد ألقيت، وأصنافًا من الخيرات قد أتلفت، والله المستعان.

---

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ١٨٦.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٧.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحثّ على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا من الخير وكون ذلك كله من الإيمان، رقم ١٨٢، ١/ ٤٩، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

طعام الآخرة

إنّ المتتبع لآيات القرآن الكريم التي تحدّثت عن الطعام يجد أنّ كثيرًا من هذه الآيات قد تحدّثت عن طعام الآخرة؛ حيث يخبر الله عز وجل في آيات عدّة من كتابه العزيز عن طعام أهل الجنة، ويصف لعباده ما أعدّ للمتقين منهم من طعام ناعم، وأكلٍ دائم، ويخبر سبحانه عن طعام أهل النار، ويصف لعباده ما أعدّ للمجرمين من طعام أثيم، وشراب من حميم.

أولًا: طعام أهل الجنة:

لقد أخبر الله عز وجل في مواضع كثيرة من كتابه العزيز عمّا أعدّ لعباده المتقين من نعيم مقيم في الجنّة، وأخبر سبحانه عن ظلال الجنة وأنهارها، وأخبر عن أشجارها وثمارها، وأسهب سبحانه في الحديث عن تنعّم أهل الجنة بما فيها من أصناف النعيم؛ فأخبر سبحانه عن طعامهم وشرابهم، وأخبر عن مساكنهم وبيوتهم، وأخبر عن أزواجهم وخدمهم، وأخبر عن لباسهم وحليّهم، وأخبر حتى عن كؤوسهم وصحافهم، وفي هذا كلّه ترغيب للعباد في جنّة الرحمن، وتشويق لهم للدار الآخرة، وتحفيز لهم على الجد والاجتهاد في الطاعة والعبادة لنيل ذلك الجزاء العظيم، والفوز بذلك الفوز الكبير.

فمن إخبار الله عز وجل عن طعام الجنّة أنّه سبحانه ذكر دوام ذلك الطعام، وأنّه لا ينقطع، ولا يمنع؛ بل هو يسير المنال، قريبٌ ممن اشتهاه.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ﴾ [الرعد: ٣٥].

ومعنى دوام طعام أهل الجنة في هذه الآية: أنّه لا ينقطع أبدًا، ولا تنقطع لذته؛ فلا تزيد بجوع، ولا تملّ من شبع [(١)].

وقد قال سبحانه عن فاكهة الجنة: ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ [الواقعة: ٣٢- ٣٣].

فثمار الجنة وفاكهتها دائمة؛ لا تنقطع في حين دون حين، ولا تمنع بالحيطان والنواطير، ولا تنقطع إذا جنيت ولا تمنع من أحد إذا أريدت؛ إنّما هي مطلقة لمن أرادها، قريبة لمن اشتهاها [(٢)].

قال ابن كثير: «أي: لا تنقطع شتاءً ولا صيفًا؛ بل أُكُلُها دائمٌ مستمرٌ أبدًا، مهما طلبوا وجدوا، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شيء، وقال قتادة: لا يمنعهم من تناولها عودٌ ولا شوكٌ ولا بعدٌ» [(٣)].

وهذا الحال لطعام الجنّة وفاكهتها على خلاف ثمار الدنيا التي تنقطع وتمنع؛ فحتى

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيّان ٥/ ٣٨٦.
(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ١٤١.
(٣) تفسير القرآن العظيم ١٣/ ٣٧٠.

ملوك الدنيا وأغنياؤها قد يشتهون ثمرًا، ويجدون قيمته، ولكنّهم قد لا يحصلون عليه؛ لأنّه في غير وقته، أو لأنّه بعيد مكانه، وقد يشتهون طعامًا أو شرابًا موجودًا؛ ولكنه يحتاج إلى وقتٍ في صنعه وإعداده؛ فلا يأتيهم في وقت مرادهم؛ فتنقطع شهوتهم أثناء انتظاره، ولا شكّ بأنّ أعظم لذة بالطعام والشراب في وقت اشتهائه وطلبه.

ولقد أخبر الله عز وجل عن ثمار الجنّة وقطوفها، فبيّن سبحانه أنّ قطوفها دانية مذللة لأهلها في كل وقت ومكان، وشرابها جاهز على الدوام، وعيونها تتفجر في الحال، كي لا يظنن ظانٌّ أنّ ثمار الجنة في الحصول عليها كثمار الدنيا، تحتاج إلى من يجلبها من سوقها، أو يصعد شجرها ليقطفها؛ بل هي ثمار لصاحبها تأتيه حيث كان، وتدنو منه متى أراد، وما عليه إلا أن يشتهيها لينالها.

قال الله عز وجل: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤].

وقال سبحانه: ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٢- ٢٣].

قال البراء بن عازب رضي الله عنه: «أي: قريبة، يتناولها أحدهم وهو نائم على سريره»[(١)].

إنّها ثمار في رؤوس أشجارها؛ ولكنها مذللة لأصحابها؛ يقطفونها يانعة ناضجة متى اشتهوها.

قال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤].

قال مجاهد رحمه الله: «إن قام ارتفعت بقدره، وإن قعد تدلت له حتى ينالها، وإن اضطجع تدلت له حتى ينالها، فذلك قوله: ﴿تَذْلِيلًا﴾»[(٢)].

لقد أخبر الله عز وجل أنّ لأهل الجنّة فيها ما تشتهيه الأنفس من المآكل والمشارب، وأصناف الأطعمة والفواكه.

قال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠- ٢١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المرسلات: ٤١ – ٤٣].

وقال سبحانه: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[الزخرف: ٧١].

وقد أباح الله عز وجل لأهل الجنّة أن يتناولوا من خيراتها وألوان طعامها وشرابها ما يشتهون ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤][(٣)].

ولا شكّ بأنّ أعظم شيء في الطعام والشراب لذته، وكلما كان طيبًا شهيًّا عظم الفرح به، وزاد التلذذ بأكله، وأقبل الآكل والشارب عليه؛ ولذا يعطى أهل الجنة قوةً

(١) انظر: المصدر السابق ١٤/ ١١٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٠٣، الدر المنثور،السيوطي ٨/ ٣٧٤.

(٣) انظر: الجنة والنار، عمر الأشقر ص٢٢٩.

عظيمةً لتكمل لذتهم بما يجدون من مآكلها ومشاربها؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(إنّ الرّجل من أهل الجنّة ليعطي قوّة مائة رجلٍ في الأكل والشّرب والجماع والشّهوة، فقال رجلٌ من اليهود: إن الذي يأكل ويشرب تكون منه الحاجة، فقال: يفيض من جلده عرقٌ فإذا بطنه قد ضمر)**(١).

لقد أخبر الله عز وجل أنّ ثمار الجنّة كثيرة عظيمة، فقال عز وجل: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢-٧٣].

ومن كثرة ثمار الجنة يظنّ أهلها -كلما رزقوا منها رزقًا- أنّهم قد رأوها من قبل، فإذا هي أنواعٌ جديدةٌ متشابهةٌ في شكلها ولونها، مختلفةٌ في طعمها وريحها.

قال الله عز وجل: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾[البقرة: ٢٥](٢).

وعلى كثرة ثمار الجنة وفاكهتها إلا أنّها لا تشبه ما في الدنيا من ثمار، وليس بين ثمار الجنّة وثمار الدنيا من الشبه إلا في الاسم، أمّا الحقيقة والطعم والرائحة فثمار الجنة تعظم ثمار الدنيا بما لا يعلمه إلا الله عز وجل.

قال ابن القيم بعد أن ذكر الآيات والأحاديث في طعام الجنّة: «قد تضمنت هذه النصوص أنّ لهم فيها الخبز واللحم والفاكهة والحلوى وأنواع الأشربة من الماء واللبن والخمر؛ وليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء؛ وأمّا المسميات فبينها من التفاوت ما لا يعلمه البشر»(٣).

ومن خصائص ثمار الجنة أنّ لكلّ فاكهةٍ منها نوعين ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢].

وذلك من جميع أصناف الفواكه، كلّ صنف له لذة ولون ليس للنوع الآخر، أو يكون فيها من كل نوع ما يؤكل رطبًا وما يؤكل يابسًا؛ كالعنب والزبيب، والرطب والتمر، ونحو ذلك(٤).

وأكثر شيءٍ ينغّص على أهل الدنيا عيشهم القلة بعد الجدة، وفقد الشيء بعد نيله، واشتهاء الشيء مع عدم القدرة عليه، ومن الناس من يشتهي طعامًا فيأكل من الطعام ما يضره؛ لمرض فيه، ومنهم من يرى الطعام فيحبس نفسه عنه وإن كان يشتهيه؛ خوفًا من عاقبته، ومن الناس من يسرف في مأكله فيضر نفسه، ويحبس نفسه.. وأمّا أهل الجنة فيتنعمون بأنواع المآكل والمشارب وهم آمنون من كل هذا التنغيص.

(١) أخرجه الدارمي في سننه، باب في أهل الجنة ونعيمها، رقم ٢٨٦٧، ٣/ ١٨٦٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٢١.
(٣) حادي الأرواح ص١٣٠.
(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ١٢٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ١٧٩.

قال الله عز وجل عنهم: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥].

فهم آمنون من فقدها وقلتها، وآمنون من ضررها وعاقبتها، وآمنون من حبس نفوسهم عنها لعلة من العلل؛ فالجنة ليس فيها مرض ولا قلة، ولا فقر ولا ضرر على أهلها مما يأكلون ويشربون[(١)].

ومن تمام نعمة الله عز وجل على أهل الجنة في طعامهم وشرابهم أنّ سبحانه جعل تصريف الطعام والشراب في الجنّة ليس كما هو في الدنيا؛ فليس في تصريفه شيء من الأذى أو الخبث؛ بل هو جشاء ورشح يفيض مسكًا؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**يأكل أهل الجنّة فيها ويشربون، ولا يتغوّطون ولا يمتخطون ولا يبولون، ولكن طعامهم ذاك جشاءٌ كرشح المسك**)[(٢)].

إنّ كلّ هذا النعيم من الطعام والشراب جعله الله عز وجل لأهل الجنة؛ يتنعمون به، ويتلذذون به، وليس طعامهم هذا وشرابه عن شعور بالجوع أو العطش؛ بل هو نعيم وسرور ما بعده سرور، قال القرطبي في التذكرة: «نعيم أهل الجنة وكسوتهم ليس عن دفع ألم اعتراهم؛ فليس أكلهم عن جوع، ولا شربهم عن ظمأ، ولا تطيبهم عن نتن؛ وإنّما هي لذاتٌ متواليةٌ، ونعمٌ متتابعةٌ، ألا ترى قوله تعالى لآدم: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨ - ١١٩].

وحكمة ذلك أنّ الله تعالى عرفهم في الجنة بنوع ما كانوا يتنعمون به في الدنيا، وزادهم على ذلك ما لا يعلمه إلا الله عز وجل»[(٣)].

ثانيًا: طعام أهل النار:

وكما أخبر الله سبحانه عن نعيم الجنّة وطعامها؛ فإنّه سبحانه قد أخبر عن عذاب النار وأهوالها، وبيّن سبحانه ما فيها من سموم وحميم، وطعام الأثيم، وخزي وعذاب أليم؛ ليكون العباد على بيّنة، وليجنّب العقّال منهم أنفسهم عن ذلك العذاب قبل أن يأتي وقت لا ينفع فيه الندم.

لقد بيّنت آيات الكتاب العزيز أنّ لأهل النار أصنافًا من العذاب؛ فلا يقتصر عذابهم على حرّها وإحراقها؛ بل فيها مع ذلك الإحراق عذاب الحسرة والندم، وعذاب السلاسل والأغلال، وعذاب الصّراخ والفزع، وألم الجوع والعطش، وعذاب الريح الخبيثة والنتن، وأصنافًا غير ذلك من

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٢٣٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٧٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيًا، رقم ٧٣٣٣، ٨/ ١٤٧.

(٣) التذكرة ص٤٧٥.

العذاب المهين.

فأمّا طعام أهل النار فقد أخبر الله عز وجل بأنّه ليس لهم طعام إلا الضريع، فقال سبحانه: ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾ [الغاشية: ٦].

وفي موضع آخر من الكتاب العزيز أخبر سبحانه أنّه ليس لأهل النار طعام غير الغسلين، فقال تعالى: ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ٣٦ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة: ٣٥ - ٣٧].

فهذا هو طعامهم: الغسلين والضريع، وليس لهم طعام سوى ذلك.

والمتأمل في هاتين الآيتين الكريمتين يجد أنّ كلّ آية منهما حصرت طعام أهل النار بنوع من الطعام غير النوع الآخر؛ فذكرت الآية الأولى أنّ الكافر لا طعام له يوم القيامة إلا من ضريع، وذكرت الآية الثانية أنّ الكافر لا طعام له يوم القيامة إلا من غسلين، وهذا الحصر في كلا الآيتين قد يفهم منه البعض أنّ فيه تعارضًا وتناقضًا؛ وقد جمع المفسرون بين الآيتين بما لا يبقي تعارضًا؛ ولكن قبل بيان ذلك لا بدّ من بيان معنى الضريع، ومعنى الغسلين.

فأصل الغسلين في اللغة: ما يخرج من الثوب ونحوه بالغسل؛ ثمّ استعمل في كل جرح غسل فخرج منه شيء، فهو غسلين، واستعمل القرآن لفظ الغسلين في كل ما يسيل من جلود أهل النار؛ كالقيح والصديد وغيرهما، كأنه يغسل عنهم[(١)].

وللمفسرين أقوال متعددة في المقصود بالغسلين في القرآن الكريم؛ والمنقول عن ابن عباس رضي الله عنه أنّه: الصديد والدم والماء يسيل من لحوم أهل النّار، والمنقول عن قتادة أنّ الغسلين: شر الطعام وأخبثه وأبشعه[(٢)].

أمّا الضريع: فهو نبت يقال له: الشبرق، ويسمّيه أهل الحجاز: الضريع إذا يبس، وهو نبات ذو شوك، لا تقربه دابّة إذا يبس، وهذا المعنى في الضريع مروي عن ابن عباس رضي الله عنه، وعن عكرمة، وعن مجاهد وقتادة، وقال بعض المفسرين: الضريع شوك من النار[(٣)].

وعلى ضوء معنى الغسلين ومعنى الضريع يتبين أنّهما ليسا شيئًا واحدًا، وأنهما ليسا اسمين لمسمى واحد؛ بل هما شيئان مختلفان، وقد جمع المفسرون بين الآيتين بما بعدة أقوال:

الأول: أنّ العذاب يوم القيامة ألوان وأشكال، والمعذبون طبقات ودرجات؛

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٢٤، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٢٥٧.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ٣٥٤، البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٣٢٠.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٣٨٤، معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٤٠٨.

فمنهم من لا طعام له إلا من غسلين، ومنهم من لا طعام له إلا من ضريع؛ يرشد لهذا التنوع في العذاب قوله تعالى في وصف النار: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]؛ فكلّ باب من هذه الأبواب اختص بفريق من أهل الكفر، وكل باب من هذه الأبواب داخله مغاير لما في داخل الباب الآخر، فإذا تعددت الأبواب، وتنوعت المقامات دلّ ذلك على تنوع أنواع العذاب والطعام.

وبحسب هذا التوجيه، يكون كل نوع من الطعام مخصصًا لفريق من أهل النار؛ ففريق يكون طعامه الغسلين، وفريق آخر يكون طعامه الضريع، وفريق ثالث يكون طعامه الزقوم، وهكذا؛ فغاية ما في الأمر أنّ كلّ آية تحدثت عن نوع من الطعام المخصص لهذا الفريق أو ذاك[(١)].

الثاني: أنّ المعنى في الآيتين أنّهم لا طعام لهم أصلًا؛ لأنّ الضريع لا يصدق عليه اسم الطعام، ولا تأكله البهائم -فضلًا عن الآدميين-، وكذلك الغسلين ليس من الطعام في شيء؛ فمن طعامه الضريع لا طعام له، ومن طعامه الغسلين كذلك، ويكون التعبير بهذا الأسلوب من باب المبالغة. ومنه قولهم: فلان لا ظل له إلا الشمس، ومرادهم. لا ظل له أصلًا[(٢)].

الثالث: أن تحمل الآيتان على حالتين، حالة يكون فيها طعامهم الضريع دون غيره، وحالة ثانية يكون طعامهم الغسلين، ولا شيء غيره. ويستنبط هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٤].

أي: تارة يعذّبون في الجحيم، وتارة يسقون من الحميم، وهو الشراب الذي هو كالنحاس المذاب، يقطع الأمعاء والأحشاء، وعلى هذا يكون طعامهم الضريع في وقت، وفي وقت آخر يكون طعامهم الغسلين، والله أعلم.

وقد وصف الله عز وجل طعام الضريع الذي أعدّه سبحانه لأهل الجنّة بأنه: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٧].

وذلك لبيان أنّ ذلك الطعام كلّه ضرر، لا نفع فيه أبدًا؛ «فلا يعود على آكليه بسمنٍ يصلح بعض ما التفح من أجسادهم، ولا يغني عنهم دفع ألم الجوع»[(٣)].

وهناك طعام ثالث لأهل النار، وهو شجرة الزقوم، وقد أخبر الله عز وجل عنها في غير موضع من كتابه العزيز، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٦٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٣١.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٣٠/ ١١٣، دفع إيهام الاضطراب، الشنقيطي ص٢٤٣.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٩٧.

﴿رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٢ – ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ – ٤٦].

إنّها لشجرة شنيعة المنظر، فظيعة المظهر، مرّة المذاق، وهي شجرة خلقها الله في نار جهنم، وسمّاها الشجرة الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجؤوا إليها فأكلوا منها، فغلت في بطونهم كما يغلي المهل، وهو النحاس المذاب (١)، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن شدّة مرارة تلك الشجرة فقال: (ولو أنّ قطرةً من الزقوم قطرت؛ لأمرّت على أهل الأرض عيشهم؛ فكيف من ليس لهم طعام إلا الزقوم؟!) (٢).

وكل طعامٍ يأكله أهل النار يجمع عليهم مرارة الطعام وغصته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٢ – ١٣].

والغصة هي التي يعلق بها الطعام في الحلق؛ فلا يسهل عليه دخوله إلى الجوف، ولا يسهل خروجه عنه للتخلص منه، وفي هذا غاية الألم وغاية العذاب (٣).

والخلاصة أنّه لا طعام لأهل النار إلا الضريع والغسلين والزقوم، وكلّ ذلك ما هو إلا عذاب فوق العذاب، ليس فيه من خصال الطعام الطيّب شيء؛ فيا قبح طعم ما يأكلون! ويا بشاعة ما يطعمون؛ لا تستسيغه أذواقهم، ولا تقبله ألسنتهم، ومن شدّة ما هم فيه من آلام الجوع ومرارة الطعم يتمنّون الموت فلا يموتون، بل يزدادون عذابًا فوق عذابهم، قال تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٦ – ١٧].

نعوذ بالله العظيم من النار وما فيها من طعام ذي غصة وعذاب أليم.

وبعد الحديث عن طعام أهل الجنّة وطعام أهل النّار فإنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ إخبار الله عز وجل عن ذلك في سياق الحديث عن نعيم الجنّة وعذاب النّار فيه أعظم النفع للعباد؛ إذ فيه الترغيب العظيم في نعيم الجنّة، والتنفير الشديد من عذاب النّار، وإذا ما علم العبد ما أعدّ الله سبحانه

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١٤٩.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٧٣٥، ١/ ٣٠٠.
والحديث ضعفه الألباني في الضعيفة، رقم ٦٧٨٢، ١٤/ ٦٣٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٤/ ١٦٩.

لعباده الطائعين من النعيم، وعلم ما أعدّ الله عز وجل للعصاة من العذاب الأليم فإنّه سيسعى سعيًا حثيثًا للفوز بذلك النعيم، وللنجاة من ذلك العذاب الأليم.

الطعام وعبادة التفكر

إنّ التفكر في خلق الله عز وجل، وفي آياته وآلائه عبادة قلبية عظيمة؛ يزيد بها الإيمان، وينشرح بها الصدر، وتطمئن بها النفس، ويستنير بها القلب، ولقد حثّ الله عز وجل عباده بأن ينظروا في آياته، ويتفكروا في خلقه، وذلك في مواضع عديدة من الكتاب العزيز، من ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

وقوله عز وجل: ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾ [ق: ٦ – ٨].

ولقد مدح الله عز وجل عباده الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠ – ١٩١].

وختمت آيات عديدة من كتاب الله عز وجل بقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: ٣].

وقد ذم الله عز وجل من لا يعتبر بمخلوقاته وآياته الدالّة على ربوبيته وألوهيته، فقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

فالتفكر في آيات الله عز وجل مستحبٌّ، مندوبٌ إليه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «النظر إلى المخلوقات العلوية والسفلية على وجه التفكر والاعتبار مأمور به مندوب إليه»(١)، والتفكر في آيات الله عز وجل «من أفضل أعمال القلب وأنفعها»(٢).

وآيات الله عز وجل مبثوثة في مخلوقاته؛ في أرضه وسمائه؛ فالكون كلّه كتاب مفتوح، جعله الله تبارك وتعالى دليلًا قاطعًا، وبرهانًا ساطعًا على وحدانيته وعظمته، يقف العاقل فيه على صنع الله ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

والذي ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

قال الله عز وجل منبهًا عباده إلى بعض آياته وعظيم مخلوقاته: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وإنّ في الطعام الذي خلقه الله عز وجل، وجعله غذاءً نافعًا للإنسان لآياتٍ باهراتٍ تدلّ على عظمة الخالق سبحانه، وبديع صنعه، وعظيم فضله على عباده، والعبد المؤمن كلّما أكل طعامًا أذهب جوعه، وأقام صلبه، وأمدّه بالقوة والنشاط زاد شعوره بعظيم نعم الله عز وجل عليه، وكلّما تأمّل في أصناف الأطعمة، وألوان الطيبات التي أحلّها الله عز وجل لعباده زاد يقينه بالله، وزادت معرفته لربّه، وازدادت خشيته ومهابته للخالق بديع السماوات والأرض.

ولقد أمر الله عز وجل الإنسان أمرًا صريحًا بأن يتفكر ويتأمل في طعامه؛ ليصل بهذا التفكر إلى الإيمان الراسخ بعظمة الخالق وألوهيته، فقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ – ٣٢].

فليتأمل الإنسان أولًا في الماء النازل من السماء، من الذي خلقه وأنزله؟ وهل يقدر أحدٌ غير الله أن ينزله إلى الأرض على هذا الوجه الذي يحصل به النفع؛ رشًا صغيرًا رقيقًا حتى تروى به تدريجًا، من غير أن يحصل به هدم ولا غرق، وهل يقدر أحدٌ

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ٣٤٣.
(٢) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ١٨٣.

غير الله أن يشق الأرض، ويخرج منها النبات؟ وهل يقدر أحدٌ غير الله أن يخرج السنابل والثمار من ذلك النبات؟ وهل يقدر أحد غير الله أن ينمي حبّه وينقله من طور إلى طور حتى ينضج ويكون صالحًا للغذاء والقوت؟ ومن يقدر على إنبات الثمار والعنب والزيتون والنخيل؟ ومن خلق الحدائق وجعل فيها أصناف الفواكه؟ لا يقدر على شيء من ذلك إلا الله، الواحد الأحد، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩][١].

ولينظر الإنسان إلى الحبّة إذا وضعت في الأرض؛ ينشق أعلاها وأسفلها؛ فيخرج من أعلاها النبتة الصاعدة، ويخرج من أسفلها الجذور الضاربة في الأرض، والحبّة واحدة، والتربة واحدة، والماء واحد.

فمن الذي سيّرها؟ ومن الذي يرعاها ؟

ومن الذي جعل منها غذاءً للإنسان والدّواب ؟

إنّه الله عز وجل ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٣- ٥٤].

ومن عجيب آيات الله عز وجل في خلق الطعام والغذاء أنّه سبحانه يخرج من التربة الواحدة، والتي تسقى بماء واحد، يخرج منها سبحانه أصناف الثمار، وألوان الطعام، فلينظر الإنسان وليتأمل فيما يخرج من قطع الأرض المتجاورة، ليرى زروعًا مختلفةً، وزهورًا يانعةً، وفاكهةً كثيرةً متنوعةً، وثمارًا عديدة، ولكلّ صنف منها طعمٌ مختلفٌ، ولونٌ متباينٌ، وحجمٌ متفاوتٌ، ولكلّ صنف منها خصائصه ومنافعه وفوائده، فسبحان من أبدعها، وسبحان من يرعاها.

وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤][٢].

إنّ من تأمّل في تلك الآيات، وتفكّر في تلك الجنات وتنوع ثمارها وأكلها علم بأنّ لها صانعًا حكيمًا، قادرًا مدبرًا، لا يعجزه شيء، ولا تخفى عليه خافيه، له سبحانه آياتٌ بيناتٌ في خلقه تدلّ على ربوبيته

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٢٦، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١٨٢.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٢١٧،

وقدرته، وتشهد بوحدانيته[1].

ومن آيات القرآن الكريم التي تدعو العباد للتفكر فيما خلق الله عز وجل لهم من خيرات وطيبات قول الله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٥ – ٦٧].

إنّها آياتٌ عظيمةٌ من آيات الله عز وجل؛ يخرج سبحانه اللبن الخالص، ناصع البياض، طيّب الرائحة من بين الفرث والدم؛ فليس عليه لون الدم، ولا رائحة الفرث؛ بل هو خالصٌ من الكدر، سائغٌ للشاربين، يروى من العطش، ويشبع من الجوع، ويشهد بعظمة الخالق سبحانه[2].

إنّ الطعام الذي يأكله الإنسان مليء بالآيات والعبر؛ فلو تأمل الإنسان في تنوع الأطعمة واختلافها لوجد منها الرطب ومنها اليابس، ومنها الحلو ومنها المالح، ومنها ما ينبت صيفًا ومنها ما ينبت شتاءً، ومنها الكبير ومنها الصغير، ومنها اللين ومنها القاسي، ومنها ما يؤكل نيًا ومنها ما يحتاج للطبخ، ومنها ما يؤكل للغذاء ومنها ما يؤكل للتفكه، ومنها ما يناسب الإنسان في الصيف فينبته الله عز وجل صيفًا، ومنها ما يحتاجه الإنسان في الشتاء فينبته الله عز وجل شتاءً، فسبحان الخالق ما أعظمه، وما أعظم منّه وفضله على عباده، ولا يسع المؤمن حين يتأمل في تلك الآيات البيّنات إلا أن يقول كما قال ربّ العالمين: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١].

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٣/ ١٠٣.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٤٣.

موضوعات ذات صلة:

الأكل، الحلال، الحرام، الحيوان، الخبيث، الشرب، الطير، الطيبات

الطُّغيان

عناصر الموضوع

مفهوم الطغيان	٥٠
الطغيان في الاستعمال القرآني	٥١
الألفاظ ذات الصلة	٥٢
التحذير من الطغيان	٥٤
أسباب الطغيان	٦٠
مظاهر الطغيان وآثاره	٧٢
أساليب الطغاة	٧٨
جزاء أهل الطغيان	٨٨

مفهوم الطغيان

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الطّاء والغين والحرف المعتلّ أصلٌ صحيحٌ منقاسٌ، وهو مجاوزة الحدّ في العصيان. يقال: هو طاغٍ. وطغى السّيل، إذا جاء بماءٍ كثيرٍ»[1]. والطاغوت الكاهن، والشيطان، وكل رأس في الضلال، يكون واحدًا والجمع الطواغيت[2]. «والطاغية: الجبار العنيد»[3]. وقيل: الذي لا يبالي بما أتى، يأكل الناس ويقهرهم، لا يثنيه تحرّج ولا فرق[4]. وقيل: «الأحمق المستكبر الظّالم»[5].

والخلاصة: أن كل شيء جاوز الحد فقد طغى، ذكر ذلك أبو منصور الثعالبي، ونسب ذلك إلى أئمة اللغة.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «الطغيان: مجاوزة الحد في العصيان»[6].

وقال القرطبي: «الطغيان تجاوز الحد في الظلم والغلو فيه؛ وذلك أن الظلم منه صغيرة ومنه كبيرة، فمن تجاوز منزلة الصغيرة فقد طغى»[7].

وقال ابن القيم رحمه الله: «والطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع؛ فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله»[8].

والواقع أن الطغيان في الشرع يقوم على أساس معناه في اللغة، فيراد به تجاوز الإنسان حدّه وقدره، وحدّ الإنسان هو ما حدّ الله له من حدود لا يجوز أن يتجاوزها.

(١) مقاييس اللغة ٣/ ٤١٢.
(٢) مختار الصحاح، الرازي ص١٩١.
(٣) العين، الفراهيدي ٤/ ٤٣٥.
(٤) تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ١٥٤.
(٥) تهذيب اللغة ٨/ ١٥٤.
(٦) التعريفات ص١٤١.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، ٦/ ٢٤٥.
(٨) إعلام الموقعين ١/ ٤٠.

الطغيان في الاستعمال القرآني

وردت مادة (طغى) في الاستعمال القرآني(٣٩) مرة[١].

والصيغ التي وردت كالآتي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٨	﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧﴾ [النازعات:٣٧]
الفعل المضارع	٥	﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ۝٤٥﴾ [طه:٤٥]
اسم فاعل	٧	﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات:٥٣]
اسم تفضيل	١	﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ۝٥٢﴾ [النجم:٥٢]
مصدر	١٠	﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ [المائدة:٦٤]
الاسم	٨	﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء:٧٦]

وجاء **(الطغيان)** في الاستعمال القرآني على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: الضلالة والعصيان، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝١٥﴾ [البقرة:١٥] **يعني: في ضلالتهم.**

وقال تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤﴾ [طه:٢٤] **يعني: إنه عصى الله عز وجل.**

الثاني: الارتفاع والكثرة، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ۝١١﴾ [الحاقة:١١] **يعني: لمّا ارتفع وكثر.**

الثالث: الظلم، قال تعالى: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨﴾ [الرحمن:٨]. **يعني: لا تظلموا.**

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٢٦، ٤٢٧.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر في القرآن العظيم، مقاتل بن سليمان، ص٢١٤. الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٢٣- ٣٢٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ البغي:

البغي لغة:

مصدر بغى يبغي بغيًا إذا تعدى وظلم.[١].

البغي اصطلاحًا:

طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرّى، تجاوزه أم لم يتجاوزه[٢].

الصلة بين الطغيان والبغي:

الطغيان: هو تجاوز الحد الذي كان عليه من قبل. والبغي: طلب تجاوز قدر الاستحقاق، تجاوزه أو لم يتجاوزه، وهو ضربان: أحدهما محمود، وهو تجاوز العدل إلى الإحسان، والفرض إلى التطوع. والثاني مذموم، وهو تجاوز الحق إلى الباطل، أو تجاوزه إلى الشّبه[٣].

٢ العدوان:

العدوان لغة:

التعدّي في الأمر، وتجاوز ما ينبغي له أن يقتصر عليه[٤].

العدوان اصطلاحًا:

التّجاوز ومنافاة الالتئام، والإخلال بالعدالة في المعاملة[٥].

الصلة بين الطغيان العدوان:

الطغيان: هو تجاوز الحد الذي كان عليه من قبل، والعدوان: تجاوز المقدار المأمور بالانتهاء إليه والوقوف عنده.

٣ العتو:

العتو لغة:

التجبّر والتكبّر[٦].

(١) لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٧٧ .
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٣٦ .
(٣) الكليات، ص٥٨٤.
(٤) العين، الفراهيدي ٢/ ٢١٣.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٥٣.
(٦) لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٢٨ .

العتو اصطلاحًا:

عبارة عن الإباء والعصيان[1]، ومجاوزة الحد فيه بحيث لا يتأثر معه القلب بالموعظة ولا يقبل النصيحة.

الصلة بين الطغيان والعتو:

قال العسكري: «أن الطغيان مجاوزة الحد في المكروه مع غلبة وقهر، يقال: طغى الماء إذا جاوز الحد في الظلم، والعتو: المبالغة في المكروه، فهو دون الطغيان»[2].

(١) مفاتح الغيب، الرازي ٤/ ٤٥٤.
(٢) الفروق اللغوية ص٢٣٠.

التحذير من الطغيان

تنوعت أساليب القرآن في التحذير من الطغيان، وسنتناولها فيما يأتي:

أولًا: النهي الصريح:

ورد النهي الصريح في كتاب الله محذّرًا من ارتكاب الطغيان، فقال تعالى آمرًا نبيّه وأهل الإيمان بالاستقامة على الدين، ونهاهم عن الظلم والطغيان، فقال سبحانه: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٢-١١٣].

«فأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة؛ وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء، ومخالفة الأضداد، ونهى عن الطغيان، وهو البغي، فإنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك، وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء»(١).

قال سيد رحمه الله: «وإنه لما يستحق الانتباه هنا أن النهي الذي أعقب الأمر بالاستقامة لم يكن نهيًا عن القصور والتقصير، إنما كان نهيًا عن الطغيان والمجاوزة؛ وذلك أن الأمر بالاستقامة وما يتبعه في الضمير من يقظة وتحرّج، قد ينتهي إلى الغلو والمبالغة التي تحوّل هذا الدين من يسر إلى عسر، والله يريد دينه كما أنزله، ويريد الاستقامة على ما أمر دون إفراط ولا غلو، فالإفراط والغلو يخرجان هذا الدين عن طبيعته كالتفريط والتقصير، وهي التفاتة ذات قيمة كبيرة لإمساك النفوس على الصراط، بلا انحراف إلى الغلو، أو الإهمال على السواء»(٢).

وأمر الله سبحانه عباده بأكل الحلال الطيب، ونهاهم عن الطغيان بالسرف والبطر، فقال سبحانه: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١].

أي: ولا تطغوا في رزقي بالإخلال بشكره وتعدي حدودي فيه بالسرف والبطر، والاستعانة به على المعاصي، ومنع الحقوق الواجبة فيه، فينزل عليكم غضبي، وتجب عليكم عقوبتي(٣).

وقال ابن كثير: «أي: كلوا من هذا الرزق الذي رزقتكم، ولا تطغوا في رزقي، فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما آمركم به»(٤).

ونهى عن الطغيان في الميزان، فقال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٥٤.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٣١.

(٣) تفسير المراغي ١٦/ ١٣٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٣٠٨.

﴿تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩].

وقد اختلف علماء التفسير في معنى الميزان، فقيل: هو العدل، وقيل: المراد آلة الوزن التي يتوصّل بها إلى الإنصاف والانتصاف، وقيل: الميزان هو القرآن؛ لأن فيه بيان ما يحتاج إليه، وقيل: إن الميزان هو الحكم[1].

وليس هناك تعارض بين هذه الأقوال، ولا مانع أنه يعم الجميع، فالمطلوب من الإنسان ألا يطغى سواء في آلة الوزن، أو في تجاوز حدود الله، أو في ظلم الناس.

ثانيًا: التعليل بسوء المصير:

من أساليب القرآن الكريم في التحذير من الطغيان: ذكر الوعيد الشديد بسوء مصير الطغاة في الدنيا والآخرة، قال سبحانه وتعالى مبينًا مصير الطغاة: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ [ص: ٥٥].

«وهم الذين تمرّدوا على ربهم، فعصوا أمره مع إحسانه إليهم، لشر مرجع ومصير يصيرون إليه في الآخرة بعد خروجهم من الدنيا؛ لأن مصيرهم إلى جهنم، وإليها منقلبهم بعد وفاتهم، فبئس الفراش الذي افترشوه لأنفسهم جهنم»[2].

والمراد بالطاغين هنا: «عظماء أهل الشرك؛ لأنهم تكبروا بعظمتهم على قبول الإسلام، وأعرضوا عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بكبر واستهزاء، وحكموا على عامة قومهم بالابتعاد عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن المسلمين وعن سماع القرآن، وهم: أبو جهل وأمية ابن خلف، وعتبة ابن ربيعة، والوليد بن عتبة، والعاصي بن وائل وأضرابهم»[3].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا﴾ [النبأ: ٢١-٢٢].

أي: أنها كانت في حكم الله تعالى وقضائه موضع رصدٍ يرصد فيه خزنة النار الكفار ليعذّبوهم فيها[4]. والمراد بالطاغين من طغى في دينه بالكفر، أو في دنياه بالظلم[5].

ولما كان من صور الطغيان الطغيان بالظلم بيّن الله مصيرهم في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وأخبر سبحانه أنه لا يغفل عما يفعله الطغاة الظلمة من الظلم والطغيان، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ١٥٤.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٢٦.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٧٧.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٩/ ٩٠.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٧٧.

أي: «لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجّلهم أنه غافل عنهم، مهمل لهم، لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك ويعده عليهم عدًّا»(١).

قال سيد رحمه الله: «ظاهر الأمر يبدو هكذا لبعض من يرون الظالمين يتمتّعون، ويسمع بوعيد الله، ثم لا يراه واقعًا بهم في هذه الحياة الدنيا، فهذه الصيغة تكشف عن الأجل المضروب لأخذهم الأخذة الأخيرة التي لا إمهال بعدها، ولا فكاك منها، أخذهم في اليوم العصيب الذي تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع، فتظل مفتوحة مبهوتة مذهولة، مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك، ثم يرسم مشهدًا للقوم في زحمة الهول، مشهدهم مسرعين لا يلوون على شيء، ولا يلتفتون إلى شيء، رافعين رؤوسهم لا عن إرادة، ولكنها مشدودة لا يملكون لها حراكًا، يمتد بصرهم إلى ما يشاهدون من الرعب، فلا يطرف ولا يرتد إليهم، وقلوبهم من الفزع خاوية خالية، لا تضم شيئًا يعونه أو يحفظونه أو يتذكرونه، فهي هواء خواء»(٢).

وقال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤].

أي: لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم، إنما نؤخّرهم لأجل معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله(٣).

«فيا ويل من يعدّ الله عليه ذنوبه وأعماله وأنفاسه، ويتتبعها ليحاسبه الحساب العسير، إن الذي يحسّ أن رئيسه في الأرض يتتبع أعماله وأخطاءه يفزع ويخاف ويعيش في قلق وحسبان، فكيف بالله المنتقم الجبار؟!»(٤).

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**)، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢](٥).

وحينما يتسلل الإحباط واليأس في نفس المؤمن وهو يرى ما عليه الطغاة وأهل الكفر من التمكين في الأرض، وما يملكونه من القوة والهيمنة، فليتذكر قول الله سبحانه: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

«وهذه الآية المقصود منها التسلية

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥١٥.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢١١١.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٦٢.
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٢٠.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (وكذلك أخذ ربك)، ٦/ ٧٤، رقم ٤٦٨٦.

عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا، وتنعّمهم فيها، وتقلّبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات، وأنواع العز والغلبة في بعض الأوقات، فإن هذا كله ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون به قليلًا، ويعذّبون عليه طويلًا، هذه أعلى حالة تكون للكافر، وقد رأيت ما تؤول إليه»(١).

ويسلّي الله نبيه صلى الله عليه وسلم، ويبيّن له مصير الطغاة المجرمين، فيقول سبحانه: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

فهذا الوعيد الشديد بذكر مصير أهل الفسق والطغيان يجعل من الإنسان المسلم شخصية خائفة من ربها تبارك وتعالى، مجتنبًا كل الأسباب الموصلة إلى الطغيان؛ لأن الله قد حذّر منه، وذكر مصير أهله.

ثالثًا: الحث على الاعتبار بالسابقين:

يقصّ الله تبارك وتعالى علينا قصص الطغاة، وما حلّ بهم النكال والعذاب لا لأجل التسلية، وإنما لأجل أخذ العبرة من هذه القصص، وحتى لا نقع في طغيانهم وضلالهم، وسأتناول شيئًا من قصص الأمم السابقة التي طغت وتكبّرت على الخالق والخلق:

فالطغاة قد تخدعهم قوتهم وسطوتهم المادية، فينسون قوة الله وجبروته، ولكن الله لهم بالمرصاد.

قال سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٤].

«فربك راصد لهم، ومسجّل لأعمالهم، فلما أن كثر الفساد، وزاد صبّ عليهم سوط عذاب، وهو تعبير يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط، وبفيضه وغمره حين يذكر الصّبّ، حيث يجتمع الألم اللاذع، والغمرة الطاغية، على الطغاة الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد»(٢).

وذكر الله سبحانه إهلاك الأمم السابقة بسبب طغيانهم وعتوهم، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ٥١ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾ [النجم: ٥٠-٥٢].

فأهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود، وكانوا هم أشد ظلمًا لأنفسهم، وأعظم كفرًا بربهم، وأشد طغيانًا وتمردًا على الله من الذين أهلكهم من بعد من الأمم، وكان

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٦٢.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٩٠٤.

طغيانهم أكثر طغيانًا من غيرهم من الأمم[1].

وكان عاقبتهم: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١- ١٢].

وأخبر تبارك وتعالى عن مصير الطغاة المكذّبين بأنبيائهم، فقال سبحانه: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٨-٤٠].

«هؤلاء الذين ملكوا القوة والمال وأسباب البقاء والغلبة، قد أخذهم الله جميعًا بعد ما فتنوا الناس وآذوهم طويلًا.

فعاد أخذهم حاصب، وهو الريح الصرصر التي تتطاير معها حصباء الأرض، فتضربهم وتقتلهم، وثمود أخذتهم الصيحة، وقارون خسف به وبداره الأرض، وفرعون وهامان غرقًا في اليم، ذهبوا جميعًا مأخوذين بظلمهم ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾»[2].

وذكر لنا تبارك وتعالى طغيان قوم صالح عليه السلام.

قال سبحانه وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس:١١-١٥].

قال الطبري: «الطاغية طغيانهم الذي طغوا في معاصي الله، وخلاف كتاب الله»[3].

وقصّ الله علينا قصة أصحاب الجنة لما طغوا وتغطرسوا على عباد الله الضعفاء، ومنعوهم حقهم من الصدقات، ولم يشكروا الله تعالى على نعمه عليهم، جاء العذاب، ونزعت النعمة.

قال سبحانه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٥٣.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٣٥-٢٧٣٦.

(٣) جامع البيان ٢٣/ ٢٠٨.

﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ١٧-٣٣].

فالله تبارك وتعالى يسوق إلى قريش هذه التجربة من واقع البيئة، ومما هو متداول بينهم من القصص، فيربط بين سنته في الغابرين، وسنته في الحاضرين، ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم[1].

ولما طغى قوم عاد وتكبروا، وقالوا لنبيهم استهزاء واستهتارًا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

فردّ الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥-١٦].

وقال تبارك وتعالى مخبرًا عن فرعون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص ٣٨-٤٠].

ويصف لنا ربنا -جل جلاله- هذا الطاغية المتجبر، وإذلاله لموسى عليه السلام ولقومه، وعدم مبالاته بهم، فقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾[الشعراء: ٥٣-٥٦].

فكانت النتيجة: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٥٧-٦٢].

فهذه القصص وغيرها في كتاب الله تبارك وتعالى لم يقصها الله علينا إلا لأخذ العظة والعبرة منها، فنبتعد عن الطغيان وصفات الطغاة.

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٦٦٦.

أسباب الطغيان

لوقوع الطغيان من الإنسان أسباب نتناولها فيما يأتي:

أولًا: الحسد:

مما يوقع الإنسان في الطغيان فيتجاوز الحدود: إصابته بداء الحسد، فهو الداء العضال -إن أصاب الإنسان- وهو «مذموم وصاحبه مغموم، وهو يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب...، ويقال: الحسد أول ذنب عصي الله به في السماء، وأول ذنب عصي به في الأرض، فأما في السماء فحسد إبليس لآدم، وأما في الأرض فحسد قابيل لهابيل»(١).

ومن هنا فقد ذمّه الله تعالى في كتابه في غير موضع، فقال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

قال القرطبي: «وهذا هو الحسد بعينه، وهو الذي ذمّه الله تعالى»(٢).

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢].

«فنهى اللّه سبحانه المؤمنين عن التمني؛ لأن فيه تعلق البال، ونسيان الأجل، والمراد النهي عن الحسد: وهو تمني زوال نعمة الغير، وصيرورتها إليه، أو لا تصير إليه»(٣).

وورد في ذم الحسد خاصة أخبار كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، فمن ذلك ما جاء في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسّسوا، ولا تجسّسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»(٤).

فالحسد الداء الذي يحرق قلب صاحبه إذا ما رأى لله على غيره منّة، أو أسبغ عليه نعمة؛ فيدفعه ذلك إلى ممارسة الطغيان، وهذا كان سبب طغيان اليهود، ورفضهم قبول رسالة النبي مع أنه مكتوب عندهم في التوراة، فقد أنكر الله عليهم حسدهم لرسوله على الرسالة، وحسدهم لأصحابه على الإيمان، قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٥١.
(٢) المصدر السابق ٥/ ١٦٣.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي ٥/ ٤٥.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، ٨/ ١٩، رقم ٦٠٦٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها، ٤/ ١٩٨٥، رقم ٢٥٦٣.

﴿ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

قال السعدي رحمه الله: «وهذا من قبائح اليهود وحسدهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، أن أخلاقهم الرذيلة، وطبعهم الخبيث حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله، والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت، وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله، أو حكم بغير شرع الله»[١].

ولاشك أن ذلك ناتج عن الحقد والحسد لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قال سبحانه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤].

قال الطبري رحمه الله: «يعني بالطغيان: الغلو في إنكار ما قد علموا صحته من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والتمادي في ذلك»[٢].

«فبسبب من الحقد والحسد، وبسبب من افتضاح أمرهم فيما أنزل الله إلى رسوله، سيزيد الكثيرون منهم طغيانًا وكفرًا؛ لأنهم وقد أبوا الإيمان لابد أن يشتطوا في الجانب المقابل، ولابد أن يزيدوا تبجّحًا ونكرًا، وطغيانًا وكفرًا، فيكون الرسول صلى الله عليه وسلم رحمة للمؤمنين، ووبالًا على المنكرين»[٣].

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص١٨٢.
(٢) جامع البيان، ١٠/ ٤٥٧.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٩٢٩.

والخلاصة: أن الحسد يدفع بصاحبه إلى الطغيان، وتجاوز الحدود، وقد يصل به الأمر إلى الكفر بالله سبحانه، وتكذيب الرسالة، كما فعل اليهود مع النبي صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: العجب والغرور:

العجب والغرور هو آفة الطغاة في عتوّهم وتجبّرهم وعدم قبولهم الحق والانصياع له؛ ولذلك قال الله عز وجل ذاكرًا حال قوم عاد لما طغوا وتكبّروا على ربهم، ثم على نبيهم: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

«أي: منوا بشدة تركيبهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله»[٤].

قال سيد رحمه الله: «إن الحق أن يخضع العباد لله، وألا يستكبروا في الأرض، وهم من هم بالقياس إلى عظمة خلق الله، فكل استكبار في الأرض فهو بغير الحق، استكبروا واغتروا ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ وهو الشعور الكاذب الذي يحسه الطغاة، الشعور بأنه لم تعد هناك قوة تقف إلى قوتهم، وينسون: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ إنها بديهة أولية، إن الذي خلقهم من الأصل أشد منهم قوة؛ لأنه

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٦٩.

هو الذي مكّن لهم في هذا القدر المحدود من القوة، ولكن الطغاة لا يذكرون: ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥]»[1].

«ويبرز فرعون في جاهه وسلطانه، وفي زخرفه وزينته، يخلب عقول الجماهير الساذجة بمنطق سطحي، ولكنه يروج بين الجماهير المستعبدة في عهود الطغيان، المخدوعة بالأبهة والبريق: ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]»[2].

ولم يكتف بهذا العجب، بل زاد عليه احتقارًا لموسى عليه السلام: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

يقول تعالى مخبرًا عن قول فرعون لقومه بعد احتجاجه عليهم بملكه وسلطانه، وبيان لسانه، وتمام خلقه، وفضل ما بينه وبين موسى بالصفات التي وصف بها نفسه وموسى: أنا خير أيها القوم، وصفتي هذه الصفة التي وصفت لكم ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ﴾ لا شيء له من الملك والأموال مع العلة التي في جسده، والآفة التي بلسانه، فلا يكاد من أجلها يبين كلامه؟[3].

ويستعرض قارون ملكه وقوته أمام الجماهير المنبهرين بزينة الحياة الدنيا، ويخرج على قومه في أبّهة، يقول سبحانه مبيّنًا ما كان عليه من العجب والغرور: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [القصص: ٧٩].

«أي: فخرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة، وتجمّلٍ باهر من مراكب وخدم وحشم، مريدًا بذلك التعالي على الناس، وإظهار العظمة؛ وذلك من الصفات البغيضة، والافتخار الممقوت، والخيلاء المذمومة لدى عقلاء الناس من جرّاء أنها تقوّض كيان المجتمع، وتفسد نظمه، وتفرّق شمل الأمة، وتقسمها طبقات، وفي ذلك تخاذلها، وطمع العدو في امتلاك ناصيتها»[4].

ثالثًا: العناد والكبر:

من أبرز الأسباب الحاملة على الطغيان: العناد، فالطاغية يعرف تمام المعرفة أنه على باطل، غير أنه يترك الحق ويكابر عنادًا وكبرًا وعلوًّا، وقد قصّ الله سبحانه علينا في كتابه ما يدل على هذه الحقيقة، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣١١٧.
(٢) المصدر السابق ٥/ ٣١٩٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٦١٧.
(٤) تفسير المراغي ٢٠/ ٩٧-٩٨.

«أي: تيقّنوا أنها من عند الله، وأنها ليست سحرًا، ولكنهم كفروا بها، وتكبّروا أن يؤمنوا بموسى، وهذا يدل على أنهم كانوا معاندين»[(١)].

وفي تفسير المنار: «أي: عاندوا موسى عليه السلام عنادًا بإظهار الكفر بها في الظاهر مع استيقانها في الباطن، وأن سبب هذا الجحود هو الظلم والعلو والكبرياء في الأرض»[(٢)].

وبيّن تبارك وتعالى أن التخويف للطغاة لا يزيدهم إلا طغيانًا على طغيانهم، وعنادًا على عنادهم، وكبرًا على كبرهم، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

«أي: نخوّفهم بالآيات فما يزيدهم التخويف إلا طغيانًا متجاوزًا للحد، متماديًا غاية التمادي، فما يفيدهم إرسال الآيات إلا الزيادة في الكفر، فعند ذلك نفعل بهم ما فعلناه بمن قبلهم من الكفار، وهو عذاب الاستئصال، ولكنا قد قضينا بتأخير العقوبة»[(٣)].

وأخبر سبحانه أن كفار قريش لم يكونوا يكذّبوا محمدًا صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

«بمعنى: أنهم لا يكذبونك علمًا، بل يعلمون أنك صادق، ولكنهم يكذبونك قولًا، عنادًا وحسدًا»[(٤)].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة والسدي ومقاتل: هذا في المعاندين الذين عرفوا صدق محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه غير كاذب فيما يقول، ولكنهم عاندوا وجحدوا[(٥)].

وإن من أبرز الشخصيات التي تمثّل هذا الكبر والعلو شخصية الطاغية فرعون، فقد مارس كل صنوف الطغيان بحق قومه، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤].

«أي: تكبّر وتجبّر وطغى»[(٦)].

وقال تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [القصص ٣٩].

«المراد بالأرض: أرض مصر، والاستكبار: التعظيم بغير استحقاق، بل بالعدوان؛ لأنه لم يكن له حجة يدفع بها ما جاء به موسى، ولا شبهة ينصبها في مقابلة ما أظهره من المعجزات»[(٧)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٦٣.
(٢) المنار، رشيد رضا ٩/ ٤٧١.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٨٤.
(٤) جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٣١.
(٥) انظر: الوسيط، الواحدي ٢/ ٢٦٥.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٢٠.
(٧) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٠٠.

رابعًا: الرفاهية والإسراف في الشهوات:

لم يرد الإسراف في القرآن الكريم إلا على سبيل الذم، فقد نهانا المولى سبحانه عن الإسراف، وأخبرنا أنه لا يحب المسرفين، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

[الأعراف: ٣١].

وأمرنا سبحانه بعصيان أمر المسرفين، فقال: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الشعراء: ١٥١].

فأهل الإسراف في بعد عن الهداية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

وفي قرب من الضلال ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

ومن كان هذا حاله فمصيره إلى العذاب في الدنيا ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٩].

والنار في الآخرة ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٣].

والإسراف صفة ملازمة للطغاة، ومسلكهم في الحياة دليل شاهد، وهو ملازم للعلو؛ ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

قال الطبري: «وإنه لمن المتجاوزين الحق إلى الباطل؛ وذلك كفره بالله، وتركه الإيمان به، وجحوده وحدانية الله، وادعاؤه لنفسه الألوهة، وسفكه الدماء بغير حلها»[(١)].

وقال الألوسي: «أي: المتجاوز الحد في الظلم والفساد بالقتل وسفك الدماء أو في الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية، واسترق أسباط الأنبياء عليهم السلام»[(٢)]. «ومن هذه حالته لا يزعه عن إلحاق الضر بأضداده وازع»[(٣)].

«أي: مسرف في أمره، سخيف الرأي على نفسه»[(٤)].

ويقول جل وعلا: ﴿مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣١].

وقد أخبر تبارك وتعالى عن صفات الطغاة من أهل النار ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾[الواقعة: ٤٥].

أي: كانوا في الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذّات أنفسهم، لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل[(٥)]. فالترف والتنعّم هو السبب الذي أقحمهم ابتداء في الطغيان والاستكبار، ومن ثمّ إلى نار جهنم، وبئس المصير.

(١) جامع البيان، ١٥/ ١٦٧.
(٢) روح المعاني، ٦/ ١٥٩.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢٦٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٥٥.
(٥) المصدر السابق ٧/ ٥٣٨.

وذكر تبارك وتعالى أن من صفات الطغاة المستكبرين الاستمتاع بالحياة الدنيا ولذتها دون النظر إلى أمور الآخرة، والعمل لها، فقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

«فقد كانوا يملكون الطيبات إذن، ولكنهم استنفدوها في الحياة الدنيا، فلم يدّخروا للآخرة منها شيئًا، واستمتعوا بها غير حاسبين فيها للآخرة حسابًا، استمتعوا بها استمتاع الأنعام للحصول على اللذة بالمتاع، غير ناظرين فيها للآخرة، ولا شاكرين لله نعمته، ولا متورّعين فيها عن فاحش أو حرام، ومن ثمّ كانت لهم دنيا، ولم تكن لهم آخرة، واشتروا تلك اللمحة الخاطفة على الأرض بذلك الأمد الهائل الذي لا يعلم حدوده إلا الله! ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ وكل عبد يستكبر في الأرض فإنما يستكبر بغير حق، فالكبرياء لله وحده، وليست لأحد من عباده في كثير أو قليل، وعذاب الهون هو الجزاء العدل على الاستكبار في الأرض، فجزاء الاستكبار الهوان، وجزاء الفسوق عن منهج الله وطريقه الانتهاء إلى هذا الهوان أيضًا، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين»[(١)].

خامسًا: الاستغناء:

من أبرز الأسباب الحاملة على الطغيان: الغنى، قال الحسن البصري رحمه الله: والله ما بسطت الدنيا لعبد إلا طغى كائنًا من كان، ثم تلا قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦-٧].

فأخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان، إذا رأى نفسه قد استغنى، وكثر ماله[(٢)].

وكان سبب نزول هذه الآية ما رواه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: هل يعفّر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفّرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار، وهولًا وأجنحة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا)** قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٦٤-٣٢٦٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٣٧.

لَيَطۡغَىٰٓ﴾[1].

«والمعنى: أن ما قاله أبو جهل ناشئ عن طغيانه بسبب غناه كشأن الإنسان، والتعريف في الإنسان للجنس، أي: من طبع الإنسان أن يطغى إذا أحس من نفسه الاستغناء، واللام مفيدة الاستغراق العرفي، أي: أغلب الناس في ذلك الزمان إلا من عصمه خلقه أو دينه...، والطغيان: التعاظم والكبر، والاستغناء: شدة الغنى، فالسين والتاء فيه للمبالغة في حصول الفعل مثل استجاب واستقر.

و﴿أَن رَّءَاهُ﴾ متعلق بـ(يطغى) بحذف لام التعليل؛ لأن حذف الجار مع (أن) كثير شائع، والتقدير: إن الإنسان ليطغى لرؤيته نفسه مستغنيًا.

وعلة هذا الخلق أن الاستغناء تحدّث صاحبه نفسه بأنه غير محتاج إلى غيره، وأن غيره محتاج، فيرى نفسه أعظم من أهل الحاجة، ولا يزال ذلك التوهم يربو في نفسه حتى يصير خلقًا حيث لا وازع يزعه من دين، أو تفكير صحيح، فيطغى على الناس لشعوره بأنه لا يخاف بأسهم؛ لأن له ما يدفع به الاعتداء من لأمة سلاح وخدم وأعوان وعفاة ومنتفعين بماله من شركاء وعمال وأجراء فهو في عزة عند نفسه.

فقد بيّنت هذه الآية حقيقة نفسية عظيمة من الأخلاق وعلم النفس، ونبّهت على الحذر من تغلغلها في النفس»[2].

ومن أبرز قصص القرآن التي تبرز الطغيان بسبب الاستغناء بالمال، قصة قارون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٧٦-٨١].

«هكذا تبدأ القصة فتعيّن اسم بطلها (قارون) وتحدّد قومه (قوم موسى) وتقرّر

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب قوله: (كلا إن الإنسان ليطغى)، ٤/ ٢١٥٤، رقم ٢٧٩٧.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٤٤-٤٤٥.

مسلكه مع قومه، وهو مسلك البغي ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ وتشير إلى سبب هذا البغي وهو الثراء ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ ثم تمضي بعد ذلك في استعراض الأحداث والأقوال والانفعالات التي صاحبتها في النفوس.

لقد كان قارون من قوم موسى، فآتاه الله مالًا كثيرًا، يصوّر كثرته بأنه كنوز، والكنز هو المخبوء المدخر من المال الفائض عن الاستعمال والتداول، وبأن مفاتح هذه الكنوز تعيي المجموعة من أقوياء الرجال، من أجل هذا بغى قارون على قومه، ولا يذكر فيم كان البغي ليدعه مجهولًا يشمل شتى الصور، فربما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم، كما يصنع طغاة المال في كثير من الأحيان، وربما بغى عليهم بحرمانهم حقهم في ذلك المال»[1].

ومن أبرز قصص الطغيان في القرآن قصة صاحب الجنتين.

قال سبحانه: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ [الكهف: ٣٢-٣٦].

فهما جنتان مثمرتان من الكروم، محفوفتان بسياج من النخيل، تتوسطهما الزروع، ويتفجر بينهما نهر، إنه المنظر البهيج، والحيوية الدافقة، والمتاع والمال. ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ ويختار التعبير كلمة ﴿تَظۡلِم﴾ في معنى تنقص وتمنع، لتقابل بين الجنتين وصاحبهما الذي ظلم نفسه فبطر ولم يشكر، وازدهى وتكبر.

وها هو ذا صاحب الجنتين تمتلئ نفسه بهما، ويزدهيه النظر إليهما، فيحسّ بالزهو، وينتفش كالديك، ويختال كالطاووس، ويتعالى على صاحبه الفقير ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾

ثم يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين، وملء نفسه البطر، وملء جنبه الغرور؛ وقد نسي الله، ونسي أن يشكره على ما أعطاه؛ وظن أن هذه الجنان المثمرة لن تبيد أبدًا، أنكر قيام الساعة أصلًا، وهبها قامت فسيجد هنالك الرعاية والإيثار! أليس من أصحاب الجنان في الدنيا، فلابد أن يكون جنابه ملحوظًا في الآخرة!

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٤٤٢.

﴿مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥-٣٦].

«إنه الغرور يخيل لذوي الجاه والسلطان والمتاع والثراء أن القيم التي يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى في الملأ الأعلى! فما داموا يستطيلون على أهل هذه الأرض، فلا بد أن يكون لهم عند السماء مكان ملحوظ!»(١).

ومن القصص التي تبيّن أن الاستغناء سبب من أسباب الطغيان قصة أصحاب الجنة ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ [القلم: ١٧-٣٢].

ومن القصص التي تبرز الطغيان بسبب الاستغناء بالقوة الجسدية قصة عاد: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

يقول تعالى ذكره: ﴿فَأَمَّا عَادٌ﴾ قوم هود ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ على ربهم وتجبّروا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تكبرًا وعتوًّا بغير ما أذن الله لهم به ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾ وأعطاهم ما أعطاهم من عظم الخلق، وشدة البطش ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فيحذروا عقابه، ويتقوا سطوته لكفرهم به، وتكذيبهم رسله، يقول: ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ وكانوا بأدلتنا وحججنا عليهم يجحدون(٢).

سادسًا: الأولاد:

حذّر الله تبارك وتعالى في كتابه من فتنة المال والولد، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥].

فهذا تحذير من الله للمؤمنين من الاغترار بالأزواج والأولاد، فإن بعضهم عدو لكم، والعدو هو الذي يريد لك الشر، ووظيفتك الحذر ممن هذه وصفه، والنفس مجبولة على محبة الأزواج والأولاد، فنصح تعالى عباده وحذّرهم أن توجب لهم هذه المحبة الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد، ولو كان فيها ما فيها من المحذور الشرعي، ورغّبهم في امتثال أوامره، وتقديم مرضاته بما عنده من الأجر العظيم المشتمل على المطالب

(١) المصدر السابق ٥/ ٦٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٤٤.

العالية، والمحاب الغالية، وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا الفانية المنقضية[1].

وأخبر تبارك وتعالى أن الولد قد يكون سببًا في الكفر، فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠].

قال الألوسي: «فخفنا خوفًا شديدًا أن يغشى الوالدين المؤمنين لو بقي حيًّا طغيانًا مجاوزة للحدود الإلهية، وكفرًا بالله تعالى؛ وذلك بأن يحملهما حبه على متابعته، كما روي عن ابن جبير، ولعل عطف الكفر على الطغيان لتفظيع أمره، ولعل ذكر الطغيان مع أن ظاهر السياق الاقتصار على الكفر ليتأتى هذا التفظيع، أو ليكون المعنى: فخشينا أن يدنس إيمانهما أولًا، ويزيله آخرًا، ويلتزم على هذا القول بأن ذلك أشنع وأقبح من إزالته بدون سابقية تدنيس، وفسّر بعض شراح البخاري الخشية بالعلم، فقال: أي: علمنا أنه لو أدرك وبلغ لدعا أبويه إلى الكفر، فيجيبانه، ويدخلان معه في دينه لفرط حبهما إياه، وقيل: المعنى خشينا أن يغشيهما طغيانًا عليهما، وكفرًا لنعمتهما عليه من تربيتهما إياه، وكونهما سببًا لوجوده بسبب عقوقه، وسوء صنيعه، فيلحقهما شر وبلاء، وقيل: المعنى خشينا أن يغشيهما ويقرن بإيمانهما طغيانه وكفره، فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغٍ كافر»[2].

وقال القرطبي: «والمعنى: أن يلقيهما حبه في اتباعه، فيضلا، ويتدينا بدينه»[3].

وقال ابن كثير: «أي: يحملهما حبه على متابعته على الكفر، قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب»[4].

وقال سيد رحمه الله: «فهذا الغلام الذي لا يبدو في حاضره ومظهره أنه يستحق القتل، قد كشف ستر الغيب عن حقيقته للعبد الصالح، فإذا هو في طبيعته كافر طاغٍ، تكمن في نفسه بذور الكفر والطغيان، وتزيد على الزمن بروزًا وتحققًا، فلو عاش لأرهق والديه المؤمنين بكفره وطغيانه، وقادهما بدافع حبهما له أن يتبعاه في طريقه، فأراد الله ووجه إرادة عبده الصالح إلى قتل هذا الغلام الذي يحمل طبيعة كافرة طاغية، وأن يبدلهما الله خلفًا خيرًا منه، وأرحم بوالديه، ولو كان الأمر موكولًا إلى العلم البشري الظاهر لما كان له إلا الظاهر من أمر الغلام، ولما كان له عليه من سلطان، وهو لم يرتكب بعد ما يستحق عليه القتل شرعًا، وليس لغير الله ولمن يطلعه من عباده على شيء من غيبه أن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٦٨.

(٢) روح المعاني، الألوسي ٨/ ٣٣٣-٣٣٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١١/ ٣٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ١٨٥.

يحكم على الطبيعة المغيبة لفرد من الناس، ولا أن يرتب على هذا العلم حكمًا غير حكم الظاهر الذي تأخذ به الشريعة، ولكنه أمر الله القائم على علمه بالغيب البعيد»[1].

سابعًا: الاستخفاف وغفلة الناس:

يمارس الطغاة على مر العصور وسيلة الاستخفاف بالجماهير.

يقول تبارك وتعالى عن فرعون: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[الزخرف: ٥٤].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي: استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلالة، فاستجابوا له»[2].

وقال الشوكاني رحمه الله: «أي: حملهم على خفة الجهل والسفه بقوله، وكيده وغروره، فأطاعوه فيما أمرهم به، وقبلوا قوله، وكذّبوا موسى»[3].

وقال سيد رحمه الله: «واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه، فهم يعزلون الجماهير أولًا عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها، ولا يعودوا يبحثون عنها، ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة، ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادهم، فيذهبون بهم ذات اليمين، وذات الشمال مطمئنين! ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق، ولا يمسكون بحبل الله، ولا يزنون بميزان الإيمان، فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بهم كالريشة في مهب الريح، ومن هنا يعلل القرآن استجابة الجماهير لفرعون فيقول: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾»[4].

وقد بلغ بفرعون من الخفة والاستخفاف بقومه أن قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾[النازعات: ٢٤].

«قالها الطاغية مخدوعًا بغفلة جماهيره، وإذعانها وانقيادها، فما يخدع الطغاة شيء ما تخدعهم غفلة الجماهير وذلتها وطاعتها وانقيادها، وما الطاغية إلا فرد لا يملك في الحقيقة قوة ولا سلطانًا، إنما هي الجماهير الغافلة الذلول، تمطي له ظهرها فيركب! وتمد له أعناقها فيجر! وتحني له رؤوسها فيستعلي! وتتنازل له عن حقها في العزة والكرامة فيطغى! والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة، وخائفة من جهة أخرى، وهذا الخوف لا ينبعث إلا من الوهم.

فالطاغية -وهو فرد- لا يمكن أن يكون

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٨١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ٢٣٢.
(٣) فتح القدير، ٤/ ٦٤١.
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٩٤.

أقوى من الألوف والملايين، لو أنها شعرت بإنسانيتها وكرامتها وعزّتها وحريتها، وكل فرد فيها هو كفء للطاغية من ناحية القوة، ولكن الطاغية يخدعها فيوهمها أنه يملك لها شيئًا! وما يمكن أن يطغى فرد في أمة كريمة أبدًا، وما يمكن أن يطغى فرد في أمة رشيدة أبدًا، وما يمكن أن يطغى فرد في أمة تعرف ربها، وتؤمن به، وتأبى أن تتعبد لواحد من خلقه لا يملك لها ضرًّا ولا رشدًا! فأما فرعون فوجد في قومه من الغفلة ومن الذّلة ومن خواء القلب من الإيمان ما جرؤ به على قول هذه الكلمة الكافرة الفاجرة: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ وما كان ليقولها أبدًا لو وجد أمة واعية كريمة مؤمنة، تعرف أنه عبد ضعيف لا يقدر على شيء، وإن يسلبه الذباب شيئًا لا يستنقذ من الذباب شيئًا!»[١].

يقول الكواكبي رحمه الله: «فالعوام هم قوت المستبدّ وقوّته، بهم عليهم يصول، وبهم على غيرهم يطول، يأسرهم فيتهللون لشوكته، ويغصب أموالهم فيحمدونه على إبقاء الحياة، ويهينهم فيثنون على رفعته، ويغري بعضهم ببعض فيفتخرون بسياسته، وإذا أسرف بأموالهم يقولون عنه: إنه كريم، وإذا قتل ولم يمثّل يعتبرونه رحيمًا، ويسوقهم إلى خطر الموت فيطيعونه حذر التأديب، وإن نقم عليه منهم بعض الأباة، قاتلوهم كأنهم بغاة، والحاصل أن العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل»[٢].

«والطغيان لا يخشى شيئًا كما يخشى يقظة الشعوب، وصحوة القلوب؛ ولا يكره أحدًا كما يكره الداعين إلى الوعي واليقظة؛ ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يهزون الضمائر الغافية»[٣].

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٨١٥.

(٢) طبائع الاستبداد، الكواكبي ص٥٢.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٤٣.

مظاهر الطغيان وآثاره

للطغيان مظاهر وآثار نتناولها فيما يأتي:

أولًا: الضلال والعمى:

أهل الطغيان «يدعهم الله سبحانه يخبطون على غير هدى، في طريق لا يعرفون غايته، واليد الجبارة تتلقفهم في نهايته، كالفئران الهزيلة تتواثب في الفخ، غافلة عن المقبض المكين، وهذا هو الاستهزاء الرعيب، لا كاستهزائهم الهزيل الصغير»(١).

قال الله سبحانه عن أهل النفاق والطغيان: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

عن مجاهد في قوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ قال: يزيدهم ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال: يلعبون ويترددون في الضلالة(٢).

«والصواب: يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عتوهم وتمردهم، كما قال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]»(٣).

«ومن يكتب الله عليه الضلال -وفق سنته تلك- يظل في طغيانه عن الحق، وعماه عنه أبدًا ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وما في تركهم في عماهم من ظلم، فهم الذين أغلقوا بصائرهم وأبصارهم، وهم الذين عطّلوا قلوبهم وجوارحهم، وهم الذين غفلوا عن بدائع الخلق، وأسرار الوجود، وشهادة الأشياء -التي يوجههم إليها في الآية السابقة- وحيثما امتد البصر في هذا الكون وجد عجيبة، وحيثما فتحت العين وقعت على آية، وحيثما التفت الإنسان إلى نفسه أو إلى ما يحيط به لمس الإعجاز في تكوينه، وفيما حوله من شيء، فإذا عمه -أي: عمي- عن هذا كله ترك في عماه، وإذا طغى بعد هذا كله وتجاوز الحق ترك في طغيانه حتى يسلمه إلى البوار»(٤).

وقال عز وجل: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

«يقول تعالى ذكره: إن إعراض هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا، التاركي النظر في حجج الله والفكر فيها لإضلال الله إياهم، ولو هداهم الله لاعتبروا وتدبروا، فأبصروا رشدهم، ولكن الله أضلهم، فلا يبصرون رشدًا، ولا يهتدون سبيلًا، ومن أضله عن الرشاد فلا هادي له، ولكن الله يدعهم في تماديهم في كفرهم وتمردهم في شركهم يترددون؛ ليستوجبوا الغاية التي كتبها الله

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٥.
(٢) انظر: الدر المنثور، السيوطي ١/ ١٦٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٨٤.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٠٧.

لهم من عقوبته، وأليم نكاله»[1].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

والمعنى: فنترك الذين لا يرجون لقاءنا فيما هم فيه من طغيان في الكفر والتكذيب، يترددون فيه، متحيّرين لا يهتدون سبيلًا للخروج منه[2].

ثانيًا: محاربة الحق، وتكذيب الأنبياء والدعاة:

مجرد ما يسمع أهل الطغيان الرسالة الربانية حتى يهرعوا لاستخدام الحجة التي طالما استخدمها من قبلهم، وهي اتهام الدعاة المخلصين بالكذب والدجل؛ ليبرّروا لأنفسهم قمعهم ومحاربتهم وقتلهم.

وليس غريبًا أن يتعرّض الأنبياء الصّادقون، أصحاب المنهج الرباني السليم للتكذيب والمعاداة، يقول سيد قطب رحمه الله: «فأمّا الذين كفروا بكل رسول فقد كانوا هم الذين أخذتهم العزة بالإثم، فاستكبروا أن ينزلوا عن السلطان المغتصب في أيديهم لله صاحب الخلق والأمر، وأن يسمعوا لواحد منهم...، وقد بلغ من عقدة السلطان في نفوسهم ألا ينتفع اللاحق منهم بالغابر، وأن يسلك طريقه إلى الهلاك، كما يسلك طريقه إلى جهنم كذلك! إن مصارع المكذبين -كما يعرضها هذا القصص- تجري على سنة لا تتبدل: نسيان لآيات الله، وانحراف عن طريقه، إنذار من الله للغافلين على يد رسول، استكبار عن العبودية لله وحده، والخضوع لرب العالمين، اغترار بالرخاء، واستهزاء بالإنذار، واستعجال للعذاب، طغيان وتهديد وإيذاء للمؤمنين، ثبات من المؤمنين، ومفاصلة على العقيدة، ثم المصرع الذي يأتي وفق سنة الله على مدار التاريخ!»[3].

وقد بلغ بأهل الطغيان والباطل في محاربة الحق أن أوصى بعضهم بعضًا بعدم السماع لهذا القرآن، واقترحوا وسيلة لمحاربة كتاب الله، وهي التشويش واللغو.

قال سبحانه وبحمده: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

«أي: لا تسمعوه ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ أي: عارضوه باللّغو، وهو الكلام الخالي عن فائدة، وكان الكفّار يوصي بعضهم بعضًا: إذا سمعتم القرآن من محمد وأصحابه فارفعوا أصواتكم حتى تلبّسوا عليهم قولهم، وقال مجاهد: ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ فيه بالمكاء والصفير والتخليط من القول على رسول الله صلى

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٩١.
(٢) انظر: المنار، رشيد رضا ١١/ ٢٥٦.
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٠٦.

الله عليه وسلم إذا قرأ ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ فيسكتون»[(١)].

وقريبًا من هذا المعنى قوله جل وعلا على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

وقال سبحانه عن قوم نوح: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

وقال عن قوم عاد: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

وقال عن قوم شعيب: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦].

وقال عن أصحاب القرية: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٥].

وقال عن قوم ثمود: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥].

فرغم اختلاف هؤلاء الأقوام واختلاف الأنبياء إلا أنّ الموقف واحد، هو التكذيب والرفض الواضح للدّعوة، رغم ما حمله كلّ نبي من الأنبياء لأدلة تثبت صدق دعوته وربانيتها.

والخلاصة: أن أهل الطغيان يتهمون دعاة الإصلاح بالكذب والدجل، وأن دعوتهم وإن كانت في خارجها صالحة فإنها في باطنها خبيثة باطلة.

ثالثًا: إيثار الدنيا على الآخرة:

من أبرز مظاهر الطغيان نسيان الدار الآخرة، وإيثار الدنيا عليها، فيشعر الطاغية أنه خالد مخلّد في هذه الحياة، وينسى الآخرة والبعث والنشور والجنة والنار، يقول تبارك وتعالى مذكّرًا بمصير الطغاة الذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩].

فإذا اجتمع الغنى مع نسيان الآخرة، وإيثار الحياة الدنيا، فإن الثمرة لهذا الاجتماع المشئوم هو الطغيان، قال سيد رحمه الله: «والطغيان هنا أشمل من معناه القريب، فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى، ومداه أوسع من الطغاة ذوي السلطان والجبروت، حيث يشمل كل متجاوز للهدى، وكل من آثر الحياة الدنيا، واختارها على الآخرة، فعمل لها وحدها، غير حاسب للآخرة حسابًا، واعتبار الآخرة هو الذي يقيم الموازين في يد الإنسان

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٥٠.

وضميره، فإذا أهمل حساب الآخرة، أو آثر عليها الدنيا اختلّت كل الموازين في يده، واختلّت كل القيم في تقديره، واختلّت كل قواعد الشعور والسلوك في حياته، وعدّ طاغيًا وباغيًا، ومتجاوزًا للمدى»(١).

وليس معنى هذا أن الإسلام يرفض الحياة الدنيا بالكلية، ولكن الإسلام لا يريد لهذه الحياة أن تصبح بمتاعها ولذاتها وشهواتها وإمكاناتها إلهًا معبودًا من دون الله؛ لهذا ذمّ الله من قدم الحياة الدنيا، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣].

وانظر إلى سحرة فرعون حين دخل قلوبهم الإيمان كيف نظروا إلى قومه وملكه وجنده ودنياه، وقد هدّدهم بما هدّدهم، فـ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه (٧٢-٧٣)].

فالمطلوب من المسلم أن يحرّر إرادته، فلا يصبح ويمسي مجرد مريد للحياة الدنيا.

يقول تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨-١٩].

ويقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

ويقول عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

وقد أمر الله بالإعراض عمن طغى وتعلّق بهذه الحياة وآثرها على الحياة الباقية، فقال سبحانه: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩].

قال سيد رحمه الله: «هذا الأمر بالإعراض عمن تولى عن ذكر الله، ولم يؤمن بالآخرة، ولم يرد إلا الحياة الدنيا موجّه ابتداء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليهمل شأن أولئك المشركين الذين سبق الحديث في السورة عن أساطيرهم وأوهامهم، وعدم إيمانهم بالآخرة.

وهو موجّه بعد ذلك إلى كل مسلم يواجهه من يتولى عن ذكر الله، ويعرض عن الإيمان به، ويجعل وجهته الحياة الدنيا وحدها، لا ينظر إلى شيء وراءها، ولا يؤمن بالآخرة، ولا يحسب حسابها، ويرى أن حياة

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨١٨.

الإنسان على هذه الأرض هي غاية وجوده، لا غاية بعدها، ويقيم منهجه في الحياة على هذا الاعتبار، فيفصل ضمير الإنسان عن الشعور بإله يدبّر أمره، ويحاسبه على عمله، بعد رحلة الأرض المحدودة، وأقرب من تتمثل فيه هذه الصفة في زماننا هذا هم أصحاب المذاهب المادية.

والمؤمن بالله وبالآخرة لا يستطيع أن يشغل باله -فضلًا على أن يعامل أو يعايش- من يعرض عن ذكر الله، وينفي الآخرة من حسابه؛ لأن لكل منهما منهجًا في الحياة لا يلتقيان في خطوة واحدة من خطواته، ولا في نقطة واحدة من نقاطه، وجميع مقاييس الحياة، وجميع قيمها، وجميع أهدافها، تختلف في تصور كل منهما، فلا يمكن إذن أن يتعاونا في الحياة أي تعاون، ولا أن يشتركا في أي نشاط على هذه الأرض، مع هذا الاختلاف الرئيسي في تصور قيم الحياة وأهدافها ومناهج النشاط فيها، وغاية هذا النشاط، وما دام التعاون والمشاركة متعذرين، فما داعي الاهتمام والاحتفال؟ إن المؤمن يعبث حين يحفل شأن هؤلاء الذين يعرضون عن ذكر الله، ولا يريدون إلا الحياة الدنيا، وينفق طاقته التي وهبه الله إياها في غير موضعها.

على أن للإعراض اتجاهًا آخر هو التهوين من شأن هذه الفئة، فئة الذين لا يؤمنون بالله، ولا يبتغون شيئًا وراء الحياة الدنيا، فمهما كان شأنهم فهم محجوبون عن الحقيقة، قاصرون عن إدراكها، واقفون وراء الأسوار، أسوار الحياة الدنيا»[1].

والخلاصة: أن إيثار الحياة الدنيا أساس كل بلوى، فعن هذا الإيثار ينشأ الإعراض عن الذكرى، والطغيان على أوامر الله تعالى، وعباد الله الصالحين.

رابعًا: الإفساد في الأرض:

إن الهدف الأسمى والأبرز للطاغية هو أن يحافظ على منصبه، دون أن ينازعه أو يعترض على حكمه أحد، وهو لذلك يدرك تمامًا أن هذا الأمر لا يمكن أن يتحقق إلا في بيئة فاسدة، فالطغيان كالفيروس لا ينمو ولا يتكاثر إلا في البيئات العفنة.

فـ«الحكام الطغاة كالحشرات القذرة، لا تعيش أبدًا في جو نظيف، ولا تنصب شباكها للصيد والنهب إلا حيث الغفلة السائدة، والجهالة القاتمة»[2].

يقول الكواكبي رحمه الله: «لا يخفى على المستبدّ أن لا استعباد ولا اعتساف ما لم تكن الرعية حمقاء تتخبط في ظلامة جهل وتيه عماء، فلو كان المستبد طيرًا لكان خفاشًا يصطاد هوام العوام في ظلام الجهل،

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤١٠.
(٢) الإسلام والاستبداد السياسي، محمد الغزالي ص٨٢.

ولو كان وحشًا لكان ابن آوى يتلقف دواجن الحواضر في غشاء الليل»[1].

فالطاغية لا يرضى إلا أن يمحق روحانية الأمة كلها، فلا يترك شيئًا روحانيًّا له في أعصاب الناس أثر من الوقار[2].

وكأن بين الطاغية وبين الرذيلة عهد وميثاق: أن يقوم هو بحمايتها مقابل أن تعرف له صنيعه فتحميه[3].

«فالطاغية في نسبته إلى رعيته كالوصي الخائن القوي على أيتام أغنياء، يتصرف في أموالهم وأنفسهم كما يهوى ما داموا قاصرين، فكما أنه ليس من صالح الوصي أن يبلغ الأيتام رشدهم، كذلك ليس من غرض المستبد أن تتنور الرعية بالعلم»[4].

ومن هنا نفهم سر وصف القرآن الكريم للطغاة بالمفسدين.

قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ [الفجر: ٦-١٢].

فالفساد نتيجة طبيعة ومباشرة للطغيان، يقول سيد رحمه الله معلّقًا على الآيات السابقة: «هؤلاء هم ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ وليس وراء الطغيان إلا الفساد، فالطغيان يفسد الطاغية، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء، كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة، ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف، المعمر الباني إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال.

إنه يجعل الطاغية أسير هواه؛ لأنه لا يفيء إلى ميزان ثابت، ولا يقف عند حد ظاهر، فيفسد هو أول من يفسد، ويتخذ له مكانًا في الأرض غير مكان العبد المستخلف، وكذلك قال فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

عند ما أفسده طغيانه، فتجاوز به مكان العبد المخلوق، وتطاول به إلى هذا الادعاء المقبوح، وهو فساد أي فساد»[5].

وقد وصف تبارك وتعالى رأس الطغيان -فرعون- في أكثر من آية بأنه من المفسدين.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

أي: «إنه كان ممن يفسد في الأرض بقتله من لا يستحق منه القتل، واستعباده من ليس له استعباده، وتجبّره في الأرض على أهلها،

(١) طبائع الاستبداد، الكواكبي ص٥٠.
(٢) انظر: وحي القلم، الرافعي ٢/ ٢١٨.
(٣) وحي القلم ٢/ ٢٣٧.
(٤) طبائع الاستبداد، الكواكبي ص٥٠.
(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٠٤.

وتكبره على عبادة ربه»[1].

وقال سبحانه: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠-٩١].

أي: كنت من المفسدين في الأرض بضلالك عن الحق، وإضلالك لغيرك[2].

وقال عز وجل: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

«يقول جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: فانظر يا محمد بعين قلبك كيف كان عاقبة هؤلاء الذين أفسدوا في الأرض، يعني: فرعون وملأه؛ إذ ظلموا بآيات الله التي جاءهم بها موسى عليه السلام، وكان عاقبتهم أنهم أغرقوا جميعًا في البحر»[3].

أساليب الطغاة

للطغاة في محاربة الحق أساليب نتناولها فيما يأتي:

أولًا: إلباس الحق بالباطل:

من طبائع الطغاة وأساليبهم إلباس الحق بالباطل، وقلب الحقائق الواضحة الجلية وضوح الشمس في رابعة النهار، وقد أوضح القرآن الكريم هذه الصفة فيهم إيضاحًا كافيًا شافيًا.

فنرى الطغاة يحيلون الحق باطلًا، والباطل حقًّا، وإذا بالرسول المرسل ساحر، وإذا بالمجرم الظالم الطاغية إمام عادل.

قال تبارك وتعالى مبيّنًا حقيقة هؤلاء القوم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٦-٧٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١].

«فكلمة الحق، وتوحيد الله، والدعوة إلى ترك الظلم والطغيان والإيذاء لا تصدر في عرف الطاغية إلا من مسحور لا يدري ما يقول! فما يستطيع الطغاة من أمثال فرعون أن يتصوروا هذه المعاني، ولا أن يرفع

---

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥١٧.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٣٤.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٢/ ١٣.

أحد رأسه ليتحدث عنها وهو يملك قواه العقلية!»[(١)].

وقال سبحانه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

فجعلوا أفضل الحسنات بمنزلة أقبح السيئات[(٢)].

وهذه الوسيلة قد استخدمها الطغاة.

قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

وليت الأمر ينتهي عند هذا الحد، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فقد قال الطاغية فرعون لقومه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

فأراد قتل موسى تحت مبرر الخوف على تبديل الدين، والخوف على البلاد من الفساد والدمار الذي سيحدثه موسى -بزعمه- «أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادئ؟

إنه منطق واحد، يتكرر كلما التقى الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان على توالي الزمان، واختلاف المكان، والقصة قديمة مكررة تعرض بين الحين والحين»[(٣)].

«وهذا من أعجب ما يكون، أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق هذا من التمويه والترويج الذي لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]»[(٤)].

ثانيًا: تعليل ما هم عليه من الغنى والجاه لأسباب ذاتية:

من طبيعة الطاغية أن ينسب النعم التي امتن الله بها عليه إلى أسباب ذاتية، فيزعم أنه حصل عليها بحذقه وذكائه، وورثها كابر عن كابر.

يقول تبارك وتعالى مخبرًا عن قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

قال سيد رحمه الله: «إنما أوتيت هذا المال استحقاقًا على علمي الذي طوع لي جمعه وتحصيله، فما لكم تملون عليّ طريقة خاصة في التصرف فيه، وتتحكمون

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٥٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٠٧.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٧٨.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٣٦.

في ملكيتي الخاصة، وأنا إنما حصّلت هذا المال بجهدي الخاص، واستحققته بعلمي الخاص؟

إنها قولة المغرور المطموس الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها، ويفتنه المال، ويعميه الثراء.

وهو نموذج مكرر في البشرية، فكم من الناس يظن أن علمه وكده هما وحدهما سبب غناه، ومن ثم فهو غير مسئول عما ينفق وما يمسك، غير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح، غير حاسب لله حسابًا، ولا ناظر إلى غضبه ورضاه! والإسلام يعترف بالملكية الفردية، ويقدر الجهد الفردي الذي بذل في تحصيلها من وجوه الحلال التي يشرعها، ولا يهوّن من شأن الجهد الفردي أو يلغيه، ولكنه في الوقت ذاته يفرض منهجًا معينًا للتصرف في الملكية الفردية -كما يفرض منهجًا لتحصيلها وتنميتها- وهو منهج متوازن متعادل، لا يحرم الفرد ثمرة جهده، ولا يطلق يده في الاستمتاع به حتى الترف، ولا في إمساكه حتى التقتير، ويفرض للجماعة حقوقها في هذا المال، ورقابتها على طرق تحصيله، وطرق تنميته، وطرق إنفاقه والاستمتاع به، وهو منهج خاص واضح الملامح متميز السمات.

ولكن قارون لم يستمع لنداء قومه، ولم يشعر بنعمة ربه، ولم يخضع لمنهجه القويم، وأعرض عن هذا كله في استكبار لئيم، وفي بطر ذميم.

ومن ثم جاءه التهديد قبل تمام الآية، ردًّا على قولته الفاجرة المغرورة: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[القصص: ٧٨].

فإن كان ذا قوة وذا مال فقد أهلك الله من قبله أجيالًا كانت أشد منه قوة، وأكثر مالًا، وكان عليه أن يعلم هذا، فهذا هو العلم المنجي، فليعلم؛ وليعلم أنه هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم، فليسوا هم الحكم ولا الأشهاد!»[(١)].

وأخبر تبارك وتعالى عن فرعون أنه قال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الزخرف:٥١].

فأخبر سبحانه عن فرعون وطغيانه وعناده أنه نادى في قومه متبجّحًا مفتخرًا مغرورًا بملك مصر وتصرفه فيها: أليس لي ملك مصر لا ينازعني فيه أحد، ولا يخالفني فيه مخالف، وهذه الأنهار تجري من تحتي، أنهار النيل وفروعه، وهي تجري من تحت قصري، أو بين يدي في جناني، أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، وما يظنّ فرعون

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧١٢.

أن تبيد هذه أبدًا، وما قد مكّن له من الدنيا استدراجًا من الله له، وحسب أن الذي هو فيه من ذلك ناله بيده، وحول منه وقوة، وأن موسى إنما لم يصل إلى الذي يصفه، فنسبه من أجل ذلك إلى المهانة، وهذا أشدّ الوهم من فرعون؛ إذ خيّل إليه أن ما قاله حجة مقنعة لقومه، وهذا هو حال الطغاة المجرمين.

ثالثًا: كل من خالفهم فهو على الباطل:

قد يظهر الطاغية حرصه على المشورة في الأمور، ويستشير ملأه المقربين منه؛ لتمام معرفته أنهم لن يخالفوا له رأي، فهذا فرعون يستشير قومه في قتل موسى، وهو الذي قتل في بني إسرائيل وأثخن، قال الله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

ولم يخطر على باله على الإطلاق أن أحدًا سيعترض عليه في قتل موسى، فلسان حاله: أنا لم أجعلكم في هذه المنزلة، وأمنحكم هذه الرتبة لتعترضوا علي، بل لتأمّنوا على ما أقول، أنسيتم أني ربكم الأعلى؟

فاعترض عليه أحد الحاضرين ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

فلما سمع فرعون هذا الكلام أفصح عما في نفسه من غطرسة، ولسان حاله: من ليس معنا فهو عدونا، من خالفني فهو على باطل. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

فإذا تأملنا هذه الكلمات التي قالها فرعون وجدناها تدل دلالة واضحة على الفكر الإقصائي الذي كان يحمله الطاغية فرعون ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ فلا ينبغي أن يرى الناس إلا ما رآه، ولا يمكن لهم أن يفكروا إلا بتفكيره، ولا نظر إلا نظره، فهو على الصواب وغيره على الخطأ، وهو المبصر، وهم العميان.

ولا هداية إلا ما يراه هو، كلامه رشاد، وكلام غيره غي، هو كل شيء، وغيره لا شيء، يقول سيد رحمه الله: «إنني لا أقول لكم إلا ما أراه صوابًا، وأعتقده نافعًا، وإنه لهو الصواب والرشد بلاشك ولا جدال! وهل يرى الطغاة إلا الرشد والخير والصواب؟ وهل يسمحون بأن يظن أحد أنهم قد يخطئون؟! وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأيًا؟ وإلا فلم كانوا طغاة؟»[1].

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٨٠.

ويقول السعدي رحمه الله في تفسيره: «رأى أن يستخفّ قومه فيتابعوه؛ ليقيم بهم رياسته، ولم ير الحق معه، بل رأى الحق مع موسى، وجحد به، مستيقنًا له.

وكذب في قوله: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

فإن هذا قلب للحق، فلو أمرهم باتباعه اتباعًا مجردًا على كفره وضلاله لكان الشر أهون؛ ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أن في اتباعه اتباع الحق، وفي اتباع الحق اتباع الضلال»[1].

«فالطاغية يتحكم في شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم، ويحاكمهم بهواه لا بشريعتهم، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدي، فيضع رجله على أفواه الملايين من الناس يسدها من النطق بالحق والتعدي لمطالبته»[2].

«إنه يعدم إرادة الناس، ويجهز عليها، ويدمر حرية الإنسان التي هي أهم جزء من كرامته»[3].

«فالحاكم المجرم يريد جوًّا يسوده الصمت الرهيب؛ لأنه يدري أن الأفواه لو نطقت فستفضح خبأه، وتكشف سره، وهنا الطامة الكبرى؛ لذلك من خصائص الاستبداد السياسي في كل زمان ومكان كرهه الشديد لحرية النقد والتوجيه»[4].

رابعًا: الاستهزاء:

من وسائل الطغاة الاستهزاء، واحتقار الصالحين، وقد حكى الله تبارك وتعالى لنا في كتابه ما كان عليه أهل الطغيان من استهزاء بالأنبياء المرسلين.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الزخرف: ٦-٧].

فعلى هذا النحو الذي تلقّى به المكذّبون أتباع الرسل ما جاءهم به رسلهم، يتلقّى المكذّبون المجرمون من أتباعك ما جئتهم به[5].

وقال جل في علاه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٦ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٦-٤٧].

واستهزأ قوم نوح عليه السلام به: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ [هود: ٣٨].

واستهزأت عاد بهود عليه السلام ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧].

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٧٣٧.
(٢) طبائع الاستبداد، الكواكبي ص٣٣.
(٣) فرعون والطغيان السياسي، أحمد بهجت ص٨.
(٤) الإسلام والاستبداد السياسي، محمد الغزالي ص١٤٦.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٢٩.

وقالوا لنبيهم: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[الأعراف: ٦٦].

واستهزؤوا بشعيب عليه السلام ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

واحتقر فرعون موسى عليه السلام ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

وقال عن قوم موسى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾[الشعراء: ٥٤-٥٦].

والمتأمل يدرك أن فرعون كاذب في دعواه؛ إذ لو كان الأمر كذلك فلم جمع لهم خيله ورجله، يقول سيد قطب رحمه الله: «ولكن هذا الجمع قد يشي بانزعاج فرعون، وبقوة موسى ومن معه، وعظم خطرهم، حتى ليحتاج الملك الإله -بزعمه!- إلى التعبئة العامة، ولابد إذن من التهوين من شأن المؤمنين ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ ففيم إذن ذلك الاهتمام بأمرهم، والاحتشاد لهم، وهم شرذمة قليلون!»[1].

وقد احتقر كفار قريش نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، واستبعدوا أن تكون الرسالة نزلت على رجل مثله، واقترحوا أن تكون الرسالة ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

«والواقع أن السخرية والاستهزاء من أمضى أدوات النفوذ والتأثير على الآخرين؛ ذلك أنها من أشد الأمور إيلامًا لأصحاب المروءة، فتحجزهم عن كثير من المواقف تحاشيًا أن يقعوا في مثار سخرية أو موضع استخفاف؛ ولذلك نبّه الله الرسل والمصلحين على استغلال خصوم الدعوات الإلهية لهذه السلطة، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الحجر: ١٠-١١]»[2].

خامسًا: اتهام المصلحين بالتهم الكاذبة، والتحريض عليهم:

الملاحظ على الطاغية قيامه بحملة تحريضية كاذبة واسعة النطاق ضد المصلحين، فهذا فرعون وقومه اتهموا موسى عليه السلام بسعيه إلى الاستيلاء على الأرض والوطن، قال سبحانه: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩)

(١) المصدر السابق ٥/٢٥٩٨.

(٢) مآلات الخطاب المدني، إبراهيم السكران ص١٦٣.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٩-١١٠].

وقال: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٥٧].

فهم «يصرّحون بالنتيجة الهائلة التي تتقرر من إعلان تلك الحقيقة، إنها الخروج من الأرض، إنها ذهاب السلطان، إنها إبطال شرعية الحكم، أو محاولة قلب نظام الحكم بالتعبير العصري الحديث»[(١)].

كما أن الطاغية يسعى جاهدًا إلى اتهام كل مصلح بالتآمر على البلاد والعباد، قال سبحانه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

«أي: إن هذا الصنيع الذي صنعتموه أنتم وموسى وهارون بالتواطؤ والاتفاق ليس إلا مكرًا مكرتموه في المدينة؛ بما أظهرتم من المعارضة والرغبة في الغلب عليه، مع إسرار اتباعه بعد ادعاء ظهور حجته، زاد في سورة طه ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١].

فأجمعتم كيدكم لنا في هذه المدينة؛ لأجل أن تخرجوا منها أهلها المصريين بسحركم -وهو ما كان اتهم به موسى وحده- ويكون لكم فيها مع بني إسرائيل ما هو لنا الآن من الملك والكبرياء»[(٢)].

كما أن الطاغية يحرص غاية الحرص على إظهار المخالفين له بمظهر الحريصين على النفوذ والسلطة.

قال سبحانه: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٧-٧٨].

وهذه الوسيلة التي استخدمها فرعون للتشكيك في دعوة موسى عليه السلام استخدمتها قريش لصرف الناس عن دعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

قال سبحانه: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦].

أي: «إن هذا القول الذي يقول محمد، ويدعونا إليه، من قول لا إله إلا الله، شيء يريده منا محمد يطلب به الاستعلاء علينا، وأن نكون له فيه أتباعًا، ولسنا مجيبيه إلى ذلك»[(٣)].

سادسًا: الترغيب:

قد يستعمل الطاغية أسلوب الإغواء ويمارسه على ضعاف النفوس؛ وذلك أن الطاغية يملك المال والمنصب والجاه،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٤٨.

(٢) المنار، رشيد رضا ٩/ ٦٣.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٥٢.

فيغريهم بالمال الوفير، وقد بيّن لنا القرآن الكريم كيف استخدم الطغاة هذه الوسيلة.

قال سبحانه: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣- ١١٤].

فأكّد لهم فرعون أنهم مأجورون على حرفتهم، ووعدهم مع الأجر القربى منه؛ زيادة في الإغراء، وتشجيعًا على بذل غاية الجهد[1].

وربما سعى الطغاة جاهدين لشغل الناس بأمور تافهة، وقضايا جانبية، وقد أشار القرآن الكريم إلى استخدام الطغاة لهذا الأسلوب في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

كما أن الطاغية يدرك تمامًا أن الضغط على الناس يولّد الانفجار، فيسعى جاهدًا إلى طريقة لينفّس بها عن الناس، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الوسيلة في قوله سبحانه: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

«يعني: يوم عيد كان لهم، أو سوق كانوا يتزينون فيه»[2].

فرغم جبروت فرعون وطغيانه إلا أنه جعل للناس يوم عيد يتفرغون فيه من أشاغلهم، ويلبسون أجمل ثيابهم، وفيه يلهون ويمرحون «والجماهير دائمًا تتجمع لمثل هذه الأمور، دون أن تفطن إلى أن حكامها الطغاة يلهون بها ويعبثون، ويشغلونها بهذه المباريات والاحتفالات والتجمعات، ليلهوها عما تعاني من ظلم وكبت وبؤس»[3].

وقد يلجأ الطاغية إلى التواضع للناس، فهذا فرعون الطاغية يستشير الناس في أمر فرعون، فيقول: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥].

«فيبدو تضعضعه وتهاويه وتواضعه للقوم الذين يجعل نفسه لهم إلهًا، فيطلب أمرهم ومشورتهم ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ ومتى كان فرعون يطلب أمر أتباعه وهم له يسجدون! وتلك شنشنة الطغاة حينما يحسون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم، عندئذٍ يلينون في القول بعد التجبر.

ويلجأون إلى الشعوب وقد كانوا يدوسونها بالأقدام، ويتظاهرون بالشورى في الأمر وهم كانوا يستبدون بالهوى، ذلك إلى أن يتجاوزوا منطقة الخطر، ثم إذا هم

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٤٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٢٣.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٥٩٤.

جبابرة مستبدون ظالمون!»[1].

الترهيب:

من أبرز وسائل الطغاة وتضليلهم على الناس: إرهاب كل من تسوّل له نفسه المساس بمناصبهم، فيحاول الطاغية أن يظهر بمظهر القوة، ويعرض بضعف خصومه، يقول سبحانه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

قال سيد رحمه الله: «وهو الشعور الكاذب الذي يحسّه الطغاة، الشعور بأنه لم تعد هناك قوة تقف إلى قوتهم، وينسون ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾»[2].

وقال تبارك وتعالى مخبرًا عن فرعون: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

أي: «لا خروج لهم عن حكمنا، ولا قدرة، وهذا نهاية الجبروت من فرعون والعتو والقسوة»[3].

وقد يمارس الطاغية أساليب قهرية أخرى، يقول تبارك وتعالى مخبرًا عن فرعون: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

«فالطغيان لا يخشى شيئًا كما يخشى يقظة الشعوب، وصحوة القلوب، ولا يكره أحدًا كما يكره الداعين إلى الوعي واليقظة، ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يهزّون الضمائر الغافية، ومن ثمّ ترى فرعون يهيج على موسى ويثور، عند ما يمس بقوله هذا أوتار القلوب، فينهي الحوار معه بالتهديد الغليظ بالبطش الصريح، الذي يعتمد عليه الطغاة عند ما يسقط في أيديهم، وتخذلهم البراهين ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

هذه هي الحجة، وهذا هو الدليل: التهديد بأن يسلكه في عداد المسجونين، فليس السجن عليه ببعيد، وما هو بالإجراء الجديد! وهذا هو دليل العجز، وعلامة الشعور بضعف الباطل أمام الحق الدافع، وتلك سمة الطغاة وطريقهم في القديم والجديد! غير أن التهديد لم يفقد موسى رباطة جأشه، وكيف وهو رسول الله؟»[4].

ولما لم يستجب يوسف عليه السلام لنزوات امرأة العزيز أودع في سجون الطغاة عددًا من السنين، قال سبحانه: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥].

وأول ما فكّر فيه طغاة مكة بالمكر بنبينا

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٠٠.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٥٩٣.

محمد صلى الله عليه وسلم هو السجن، يقول سبحانه: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ويلجأ الطغاة إلى التعذيب إن لم ينفع السجن والتهديد، قال سبحانه: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١].

ويقول سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ [ص: ١٢].

«أي: صاحب أوتاد أربعة يشد إليها من أراد تعذيبه»(١).

وقد يلجأ الطغاة لوسيلة القتل، قال سبحانه وتعالى مخبرًا عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ [غافر: ٢٥].

وهناك وسيلة قديمة استخدمها معظم طغاة الأرض ضد أهل الحق والدعوة، ألا وهي النفي من الأرض والإقصاء، يقول سبحانه: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ [إبراهيم: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[النمل: ٥٦].

والخلاصة: أن الطاغية لا يتحرج من ارتكاب أشد الجرائم وحشية، وأشنعها بربرية، وأبعدها عن كل معاني الإنسانية، وعن الخلق والشرف والضمير(٢).

(١) أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٤٣٩.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٤٠.

جزاء أهل الطغيان

بيّن القرآن الكريم جزاء أهل الطغيان في الدنيا والآخرة، ونتناولها فيما يأتي:

أولًا: جزاء أهل الطغيان في الدنيا:

إن الشر مهما استعلى وطغى وبغى فلابد له من نهاية مريرة، والطغاة قد تخدعهم قوتهم وسطوتهم المادية، فينسون قوة الله وجبروته، فيهلكهم الله عز وجل، ويهيئ الله المستضعفين المعتدى عليهم أن يسحقوا هذا الباطل الأشر، كما حكى الله عن بني إسرائيل: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

يقول سيد رحمه الله: «إنه حين كان بنو إسرائيل يؤدّون ضريبة الذل لفرعون وهو يقتل أبناءهم، ويستحيي نساءهم لم تتدخل يد القدرة لإدارة المعركة، فهم لم يكونوا يؤدّون هذه الضريبة إلا ذُلًّا واستكانة وخوفًا، فأما حين استعلن الإيمان في قلوب الذين آمنوا بموسى، واستعدوا لاحتمال التعذيب وهم مرفوعو الرؤوس، يجهرون بكلمة الإيمان في وجه فرعون دون تلجلج ودون تحرج، ودون اتقاء للتعذيب، فأما عند ذلك فقد تدخّلت يد القدرة لإدارة المعركة، وإعلان النصر الذي تم قبل ذلك في الأرواح والقلوب»[1].

والله سبحانه يهيّئ الأسباب لإهلاك الطاغية، وهكذا كانت نهاية فرعون ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٣-١٤].

وهذا هو مصير الطغاة.

ويقول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٥-٤٨].

وبيّن تبارك وتعالى أن هذا الإهلاك كان على سبيل الانتقام، فقال: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥].

ويصف هذا الانتقام فيقول تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٦].

أي: أخذًا شديدًا[2].

ثم يبيّن لنا كيفية هذا الأخذ والإهلاك، فيقول تبارك وتعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

ويقول: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٣٤٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٩٣.

﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: ١٠٣].

وذكر تبارك وتعالى ما ترتّب على هذا الإهلاك من صنوف العذاب، منها: أن الله سبحانه دمّر ما كان يصنع فرعون وقومه، وما كانوا يعرشون، قال تبارك وتعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

قال محمد رشيد رضا رحمه الله: «والمراد بما كان يصنع فرعون وقومه أولًا، وبالذات ما له تعلّق بظلم بني إسرائيل والكيد لموسى عليه السلام...، ومنها الصرح الذي أمر هامان ببنائه ليرقى به إلى السماء فيطّلع إلى إله موسى، والثاني: كالمكايد السحرية والصناعية التي كان يصنعها السحرة؛ لإبطال آياته، أو التشكيك فيها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ [طه: ٦٩]»(١).

ثم إن الله تبارك وتعالى حرمهم من النعمة والكنوز والمقام الكريم ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٨].

وورّث تلك النعمة والكنوز والمقام الكريم لأعدائهم ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨].

وجعلهم الله أئمة يدعون إلى النار، يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١].

قال الإمام القرطبي رحمه الله: «أي: جعلناهم زعماء يتبعون على الكفر، فيكون عليهم وزرهم ووزر من اتّبعهم حتى يكون عقابهم أكثر»(٢).

وقد جعلهم الله عز وجل محلًّا للعن في الدنيا، قال تبارك وتعال: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٢].

وقال سبحانه: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩].

أي: «وألزمنا فرعون وقومه في هذه الدنيا خزيًا وغضبًا منا عليهم، فختمنا لهم فيها بالهلاك والبوار والثناء السيئ»(٣).

وقال ابن كثير رحمه الله: «أي: وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين لرسله، كما أنهم في الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم، كذلك ويوم القيامة هم من المقبوحين»(٤).

وقد انتقم الله من الأمم المكذبة بأنبيائهم، قال سبحانه: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ

(١) المنار ٩/ ٨٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٣/ ٢٨٩.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٨٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٢٣٨.

﴿أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

والقرآن الكريم يزخر بالآيات البيّنات التي تتحدث عن المصير الثابت للطغاة المتجبرين بالهلاك المحتوم في الدنيا، والخزي الدائم يوم القيامة، وجزاء لما اقترفته أيديهم الآثمة من ظلم وطغيان، والله لا يحب الظالمين، ونهاية قارون التي سجّلها القرآن خير شاهد على ذلك؛ وذلك إنه عندما يبلغ الظلم والطغيان مداه، وتبلغ الفتة ذروتها، وتتهافت أمامها النفوس، تتدخّل القدرة الإلهية الجبارة لتضع حدًّا للفتنة، وتقرر النهاية المحتومة للظلم والطغيان ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

فهذا مصير أهل الطغيان في الدنيا، أما عقابهم في الآخرة فهو أشد وأنكى وأعظم من عقاب الدنيا.

ثانيًا: جزاء أهل الطغيان في الآخرة:

أخذ الله قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط وفرعون وجنوده كما كان يأخذ المكذّبين والطغاة، ولكن الجزاء الأخير سيكون عنده سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [البروج: ١٠-١١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٤٢ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣].

فقد يعذّب الله تبارك وتعالى الطاغية في الدنيا، وقد يمهله، أما في الآخرة فلا إمهال، فعذاب الطغاة متحقق الحصول، قال سبحانه وتعالى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝٥٦ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ﴾ [ص: ٥٥-٥٧].

قال الرازي في تفسيره: «اعلم أنه تعالى لما وصف ثواب المتقين وصف بعده عقاب الطاغين؛ ليكون الوعيد مذكورًا عقيب الوعد، والترهيب عقيب الترغيب.

واعلم أنه تعالى ذكر من أحوال أهل النار أنواعًا، فالأول: مرجعهم ومآبهم، فقال: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ [ص: ٥٥].

وهذا في مقابلة قوله: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ [ص: ٤٩].

فبيّن تعالى أن حال الطاغين مضاد لحال

المتقين»[1].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ٢١-٢٣].

والمآب: المرجع، يقال: آب يؤوب إذا رجع[2].

قال أبو جعفر الطبري: «يعني تعالى ذكره بقوله: إن جهنم كانت ذات رصد لأهلها الذين كانوا يكذّبون في الدنيا بها وبالمعاد إلى الله في الآخرة، ولغيرهم من المصدّقين بها، ومعنى الكلام: إن جهنم كانت ذات ارتقاب ترقب من يجتازها وترصدهم»[3].

فالطغاة في حقوق الله وفي حقوق العباد هم أهل النار والعياذ بالله؛ ولهذا قال: ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾[4].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩].

«والطغيان هنا أشمل من معناه القريب، فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى، ومداه أوسع من الطغاة ذوي السلطان والجبروت، حيث يشمل كل متجاوز للهدى، وكل من آثر الحياة الدنيا، واختارها على الآخرة، فعمل لها وحدها، غير حاسب للآخرة حسابًا، واعتبار الآخرة هو الذي يقيم الموازين في يد الإنسان وضميره، فإذا أهمل حساب الآخرة، أو آثر عليها الدنيا اختلّت كل الموازين في يده، واختلّت كل القيم في تقديره، واختلّت كل قواعد الشعور والسلوك في حياته، وعدّ طاغيًا وباغيًا، ومتجاوزًا للمدى»[5].

موضوعات ذات صلة:

الاستكبار، الظلم، فرعون، الفساد، الفتنة، القتل

(١) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ٤٠٣.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٤٢.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٥٨.
(٤) تفسير جزء عم، ابن عثيمين ص٣٠.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨١٨.